ملامح شرقيـــة
فى شعر المهجر

١

كثرت فى هذا القرن دواوين الشعر التى نظمها إخواننا من العرب الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية ، إلى نيويورك وسان باولو وغيرهما من المدن هناك . وجمهورهم ممن نشأوا فى الشام (سوريا أو لبنان) فى حجور هذه الطبيعة الأنيقة وبين جبالها وبساتينها البهيجة حيث تفتحت عيونهم وآذانهم على صحف الكتب السماوية وتراتيلها العذبة ، ونعموا بغذاء الفكر الحديث فى مدارس البعثات الدينية من روسية وفرنسية وأمريكية .

وقد خرجوا من ديارهم إلى أمريكا يبتغون معيشة كريمة ، تُدِرُّ عليهم أخلافَ الرزق ، وتنجيهم من ظلم الترك وسياطهم ، وتتيح لهم حظوظا من الحرية المسلوبة . وما زالوا يهاجرون من شاطىء بلادهم إلى شواطىء أمريكا ، وفى كل مكان يحلُّون فيه يتجمَّعون ويتظاهرون فيما بينهم ، فهم أبناء لسان واحد ، وديار واحدة ، وهم يشعرون فى أعماقهم بأنهم أحفادُ العرب الأمجاد .

واستطاعوا أن يؤلفوا لأنفسهم أحياء فى مدن أمريكا المشهورة طبعوها بطوابع شرقية ، ولم يلبثوا أن أصدروا صحفا عربية هناك تتحدث بلغتهم عن شئونهم وشئون بلادهم الأصلية ، وأذاعوا فى هذه الصحف أبحاثا ومقالات أدبية ، كما أذاعوا أشعارا ومنظومات وأقاصيص ، وبذلك عبروا عن مجالاتهم الفكرية والوجدانية بلغتهم العربية التى لم ينسوها ، ولم يقطعوا صلتهم بها ، بل ظلوا يعتنقونها ، كأنها الكتاب المقدس الذى حملوه فى حقائبهم .

وكان من ذلك تراث أدبى حافل من شعر ونثر مثله أروع تمثيل فى أمريكا الشمالية جبران وصحبه أمثال أيوب رشيد ، وأمين الريحانى ، وإيليا أبى ماضى ، وميخائيل نعيمة ، كما مثله أدباء أمريكا الجنوبية أمثال إلياس فرحات ، وأبى الفضل الوليد ، ونعمة الحاج ، وفوزى المعلوف .

ومن يرجع إلى ما خلّفوه من شعر يلاحظ أنهم فكّوا عن شعرنا كثيراً من القيود التى كان يرزح تحتها والتى كانت تثقله ، بل كانت تفقده كل روح ، وتحيله مواتا أو ما يشبه الموات ، فقد كان شعراء العرب حتى القرن الماضى لا يزالون يجرون فى أعقاب أسلافهم ، فهم لا يفهمون الشعر إلا على أنه ألوان من الملق تقال فى المدح ، وليس وراء ذلك إلا صور من التكلف المقيت .

وفى هذه الأثناء نشأ بمصر شوقى وحافظ ومطران ، فحاولوا أن يبعثوا الشعر من مرقده ، وينفضوا عنه جموده ، ويخلعوا عنه أكفانه ، ولكنهم ظلوا إلى الذوق القديم المحافظ أقرب منهم إلى الذوق الحديث المجدد ، وتتابعت صيحات شكرى والمازنى والعقاد بهم وبالشعراء أن يحرقوا هذه الصور القديمة من الشعر ، وأن يضعوا له صورا جديدة مستمدة من الغرب ، وأخرج كل منهم تجارب مختلفة توضح ما يريد من التجديد .

ولم يلبث شعراء المهجر أن ساهموا فى هذه النهضة المباركة لشعرنا ، وسرعان ما أرسلوها ثورة مدوية على رسومنا العتيقة وتقاليدنا البالية . وفى ذلك يقول جبران مغضبا حانقا : « لكم لغتكم ولى لغتى .. لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات ، ولى منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس فى أفراحهم وأحزانهم . لكم لغتكم ولى لغتى .. لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة ، ولى منها ما يتكبر عن رثاء مَنْ مات وهو فى الرحم ، ويأبى مديح مَنْ يستوجب الاستهزاء ،

ويأنف من تهنئة مَنْ يستدعى الشفقة ، ويترفع عن هَجْو مَنْ يستطيع الإعراض عنه ، ويستنكف من الفخر إذ ليس فى الإنسان مايفاخر به سوى إقراره بضعفه وجهله . لكم لغتكم ولى لغتى ، لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ، ولى من لغتى نظرة فى عين المغلوب ، ودمعة فى جفن المشتاق ، وابتسامة على ثغر المؤمن .. لكم لغتكم ولى لغتى ، لكم أن تلتقطوا ما يتناثر خرقا من أثواب لغتكم ، ولى أن أمزق بيدى كل عتيق بال ، وأطرح على جانبى الطريق كل ما يعوق مسيرى نحو قمة الجبل .. لكم لغتكم ولى لغتى ، لكم لغتكم عجوزا مقعدة ، ولى لغتى صبية غارقة فى بحر من أحلام شبابها . أقول لكم إن النظم والنثر عاطفة وفكر ، وما زاد على ذلك فخيوط واهية ، وأسلاك متقطِّعة .. لكم لغتكم ولى لغتى »(١)

وهذه ثورة عارمة على اللغة وأساليبها القديمة فى الشعر والنثر جميعا ، مردُّها إلى ذوق جديد فى الفن الأدبى ، وهو ذوق يريد أن يتخلص من كل العوائق القديمة ، من سجع وغير سجع فى النثر ، ومن بديع وغير بديع فى الشعر . وليس ذلك فحسب ، بل لابد أن نتخلَّص من موضوعات الشعر القديمة ، بمديحها وهجائها وفخرها ، ونردَّ إلى الشاعر قيثارته ليغنينا أحلامه ، وما توحى إليه الروح ، وما يجرى فى خاطره ، وما يعصف فى نفسه .

وتناول ميخائيل نعيمة أقباسا من هذه الثورة فى كتابه « الغربال » فحمل حملات شعواء على المحافظين ، وطالب بمقاييس جديدة ، نقيس بها الأدب ، وأن يكون هناك نقاد ممتازون لا يُضْفون الثناء إلا على من يستحقه ، وهاجم مرارا شعراء الصنعة والزركشة والرنين الموسيقى ، وطالب أن نرفع كفَّة المعنى على كفَّة اللفظ ، أو كفة الروح على كفة الجسم ، وأن يصور الشاعر فى شعره الخوالج النفسية من رجاء ويأس وفوز وفشل وإيمان وشك ولذَّة

(١) بلاغة العرب فى القرن العشرين (جمع محيى الدين رضا) الطبعة الثانية ص ٥١ وما بعدها .

وألم وغير ذلك من انفعالات وتأثرات . ونطق بهذه الثورة على القديم إيليا أبو ماضى فى فاتحة ديوانه « الجداول » إذ يقول :

لستَ منى إن حسبتَ الشعر ألفاظا ووزنا
خالفتْ دربك دربى وانقضى ما كان منَّا
فانطلقْ عنى لئلا تقتنى همًّا وحزنا
واتخذ غيرى رفيقا وسوى دنياى مَغْنى

فهو لا يعترف — رغم أنه شاعر — باللفظ والوزن ، وكأنهما فى رأيه ثياب خارجية على العقل والروح أو بعبارة أخرى على المعنى والفكرة ، أو قل إنه يراهما حاجزين ، وهو لا يحب من قارئه أن يقف منه عند الحواجز ، أو عند الظواهر ، إنما يريد منه أن يعنى معه بالباطن واللباب دون القشور .

ومثل هذا القول من إيليا وما سبقه من قول جبران وآراء نعيمة جعل كثيرا من النقاد يشنون حربا شعواء على شعر المهجر وأصحابه ، وخاصة أنهم رأوا عندهم أحيانا اضطرابا فى بعض أوزانهم وخطأ فى جوانب من لغتهم ، ولم يروهم يلتزمون الصياغة الفنية المألوفة للشعر العربى ، بل رأوا بعض أشعارهم تجرى فى معارض لفظية عادية ، أو ركيكة ، فأمعنوا فى الحملة عليهم ، وجرَّدوهم من كل إحسان .

وكان من الواجب أن لا يسارع هؤلاء النقاد فى حملاتهم ، وأن يعرفوا أن المسألة مسألة مذهب جديد فى الشعر ، وأن هذا المذهب قد تكون له أخطاؤه وتعثراته ، بحكم جِدَّته ، وما يلزم كل جديد من اضطراب فى بدء تكوُّنه وأوَّل نشأته .

وقد يكون لهم عذرهم فى الركاكة والضعف والخطأ أحيانا إذ كانو بعيدين عن العالم العربى ، ولم تكن تحت أعينهم مصادر لغتنا وعُدَدُه

اللفظية ، وأحسوا أن التمسك بالصياغة القديمة يجرُّ إلى التقليد وإلى المياه الآسنة للشعر العربى التى طال عليها الركود ، بل قل طال عليها التعفن وخنقتها الطحالب والأعشاب ، من بديع ومصطلحات علمية وحساب جُمَّل وتاريخ .

وكان تثقفهم بالآداب الغربية الدافع الحقيق لهذا التحرر ، فقد حذق جمهورهم أكثر من لغة واطلعوا على الآداب الآرية ، وإذا بهم يتخذون لأنفسهم موقفا فى لغتنا وشعرنا يشبه تمام الشبه موقف الابتداعيين الأوربيين أصحاب الرومانسية من الاتباعيين أصحاب الكلاسيكية .

ونحن نعرف أن الأولين ثاروا على الأخيرين ، إذ رأوا أن يستوحوا حاضرهم ، وأن يعنوا بالصورة قبل المادة أو بعبارة أخرى بالمعنى قبل اللفظ ، وقد فكوا شعرهم من قيود كثيرة فى الوزن والصيغة ، واتجهوا به نحو الطبيعة بحقولها وغاباتها وحياتها الريفية .

ولم يكتفوا بذلك ، بل رأوا أن يكون الشعر ذاتيا يصور خلجات صاحبه ، فمداره على العاطفة لا على العقل ، كما كان الشأن عند الاتباعيين . وهم لا يجلُّون المنطق مثلهم ، وإنما يجلُّون الخيال ، والشعر بل الأدب كله عندهم يدور على وصف المشاعر ، ورسم الخواطر الذاتية ، لا على التاريخ والاجتماع والفلسفة .

ومن هنا كان أدباء العصر الابتداعى فرديين بكل ما فى الفردية من شارات وسمات ، فهم لا يعنون بالخارج ، إنما يعنون بأنفسهم ، والمجتمع عندهم ليس له قيمة إلا بمقدار إحساس الفرد به ، فالفرد أولا ثم الجماعة ، وليست قصيدة الشاعر ولا عمل الأديب إلا تجربة ذاتية خاصة به .

ونستطيع أن نجد كل ذلك مطبوعا فى شعر المهجر ، فأصحابه ثائرون على الأوضاع القديمة فى شعرنا ، ثائرون على ألفاظه وصورة أوزانه ، وثائرون على موضوعاته من مديح وغير مديح ، وهم مشغوفون بالطبيعة ، وهم ذاتيون

فرديون أخلصوا لمشاعرهم ، واستمعوا لوساوس نفوسهم ، وصاغوا ذلك كله شعرا عذبا .

وقد حملوا كثيراً على حياة المدنية ، وتمردوا على حياة الآلة ، وسرى فى شعرهم تيار غربى ، وأصبحنا لا نقرأ لهم حتى نشعر بضرب من الحس المشترك بينهم ، فهم أصحاب مَنزع جديد فى شعرنا ، وهم يدورون فى مجالات جديدة .

وتستطيع أن ترجع إلى دواوينهم ، وخاصة دواوين المهجر الشمالى فى نيويورك ، دواوين جبران وأصحابه من الرابطة القلمية ، لتجد مصداق ما نقول من هذا التجديد ، وذلك النزوع إلى الانطلاق الشعورى والتعلق بالطبيعة ومجالى جمالها ، وتصوير الإحساسات النفسية والمشاعر الذاتية .

فهم مجددون بالمعنى الواسع لكلمة التجديد ، مجددون فى أساليبهم ولغتهم ، ومجددون فى الموضوعات التى يطرقونها ، ونكاد نقول إنهم مجددون فى الشكل الخارجى أيضـــا بما ينوعون فى أوزان القصيدة الواحدة وقوافيها ، وبما يستعملون من لغة مألوفة . وليس هذا كل ما نجده فى دواوينهم . فنحن نجد عندهم أيضا تفكيرا فيما يمكن أن نسميه الفلسفة الكونية ، إذ يشغلون دائماً بالتفكير فى الخير والشر والصراع بين الطبيعتين .

ومن المحقق أنهم بذلك يعدون من ذوق غير مألوف فى عربيتنا ، إلا عند أبى العلاء فى لزومياته ، على أنه شُغل بصعوبات التزمها ، وكاد ينسى الغرض الأصلى من صناعة شعره ، أما هم فركّزوا أنفسهم فى الشعر لذاته ، وعاشوا ينسجون فيه أفكارهم ، وداروا حول هذه الأفكار ، كما يدور الكوكب فى فلكه أو مداره ، لا يعدوه ولا يتجاوزه إلى مدار آخر . ومن هنا كان ديوان شاعر المهجر يتميز بنفسية خاصة ، تعمه وتجرى فيه ، وهذا طبيعى لأنه يعبر عند صاحبه عن خوالج نفسه ، ويصدر عن مكنون ضميره

ولعل ذلك ما جعل الغموض يجرى فى جوانب كثيرة من هذا الشعر ، وخاصة عند نسيب عريضة وإيليا أبى ماضى وميخائيل نعيمة ، ومردُّ ذلك إلى أن شعرهم حديث نفس ، وكل حديث نفس صادق يلتفُّ فى ثياب من الغموض والإبهام ، بحكم أن النفس وخواطرها محيط لا حدود له ؛ وهو محيط تكثر فيه العواصف ، ويكثر الضباب ، ويكثر الانعتاق من المحدود إلى اللانهاية .

وأكبر الظن أن قارىء هـذا الشعر فى حاجة إلى تدريب حتى يتذوقه ، لأنه لا يقاس بمقاييس شعرنا القديمة ، بل لابد له من مقاييس جديدة ، حتى يمكن الحكم عليه حكما سليما . وغالبا يعاف الإنسان الجديد الوارد عليه بسبب ذوقه القديم ، حتى إذا ألفه وتمت معرفته به أخذ يقدره ، وأخذ يرسل عليه أحكامه صادقة . ولا ريب فى أن من تعودوا قراءة بشار ومسلم وأبى تمام والبحترى والمتنبى من الصعب أن يعجبوا بهذا الشعر ، لأنه أولا يخرج على ذوق الشكل والإعجاب بالصياغة ، بل إنه يحكم عليه بالاعدام ، فليس اللفظ ولا الشكل ولا الجسم الخارجى شيئا مذكورا . ثم هو ثانيا يتوسّع فى موضوعاته ، بل إنه يخرج عن موضوع الشعر القديم ، فليس المديح والهجاء وما يتصل بهما موضوعه ، إنمـا موضوعه خواطر النفس وأحاديثها فى غير رياء ولا تصنع .

ومعنى ذلك أن كل انتقاء سواء للفظ أو للموضوع قضى عليه قضاء مبرما ، وأصبح الشاعر حرا فى لفظه وموضوعه ، فإذا قرأ آثاره صاحب ذوق قديم وجد شعرا لا يألفه ، فيصرخ قائلا : ليس هذا شعرا ، لأنه لا يجرى على عمود الشعر الذى عهده ، وعاش يقرؤه ويقدره ، ويجد فيه لذته ومتعته . حتى إذا ثاب إلى رشده ، فتعود قراءة الشعر الجديد ، وصحبه فى حلّه

وترحاله ، أحسَّ بالألفة له ، وأنه أقرب إليه من هذا الذى كان يصحبه قديما . بل لعله ينكر هذا الشعر القديم الذى كان يحبه ويسرف على نفسه فى حبه ، إذ يراه قاصرا عن التعبير عن صاحبه ، بل يراه تكرارا مملا . وما باب السرقات فى الشعر العربى إلا إشارة الوقت الموقظة التى كان يجب أن تنبّه الشعراء إلى أن هذا الشعر أصبح شيئا سقيما،فهو ترداد وبدء وإعادة فى معان محفوظة . أما هذا الشعر الجديد فإنه يفيض بالخواطر وبآمال الشاعر وآلامه وأحلامه فى الحرية التى فقدها فى بلاده والفضائل الإنسانية التى ينبغى أن تعم العالم ، بحيث يشعر كل إنسان إزاء صاحبه بما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فلا غرب ولا شرق ، ولا استعمار ، وإنما إخاء وإسلام ، ومساواة بين البشر ، فلا حر ولا عبد ، ولا شريف ولا مشروف ، ولا غنى ولا فقير ،ولا قوى ولا ضعيف ، ولا مسيحى ولا مسلم .

وهذا كله عالم جديد من الفكر ومتعة الحس والشعور ، ومع ذلك فقد وقف نقادنا المحافظون من شاعر المهجر موقف عِداء ، لأن شعره يتطلب ذوقا مغايرا للذوق القديم ، حتى يستطيع أن يرضى عنه،وحتى يشعر بما يوحيه من جمال فى الذهن والقلب . إنه انقلاب ، وكل انقلاب فى الفن لا بد له من استعداد يسبقه ، حتى تتهيّأ النفوس لقبوله ، ولكن ما تكاد النفس تقبله وتدخل فى أجوائه ، حتى تحس بروعته ،

ولم يفُتَّ فى عضد هؤلاء الشعراء سخريةُ الساخرين ولا هُزْؤُ الهازئين ، فقد مضوا فى طريقهم ، وأعلنوا الحرب على خصومهم ، وما تزال معلنة حتى عصرنا الحاضر . ودائما يسدّد خصومهم إليهم السهام من ثغرات اللفظ ،والخطأ أحيانا فى الوزن .

ومما لا شك فيه أن من يطلبون قوة العبارة ونقاء اللغة وجمالها وجلالها

لا يجدون ذلك عندهم ، ولكنهم يجدون اتجاها جديدا فى الفكر والشعور ، كما يجدون لغة بسيطة ، ليس فيها زخرف ولا وشْى ؛ ولا أى شىء يحول بيننا وبين المعنى ، فالمعنى يكاد يكون عاريا ، وهم يقصدون إلى هذا العُرْى من الزينة اللفظية ، فذلك مذهبهم . وكأنهم يرون فى الحلية المادية غشاوة ينبغى أن لا تقوم بين العيون وبين معانيهم التى تهتز لها نفوسهم ونفوس قرائهم طربا ، أو كأنهم يرونها عَرَضا ينبغى أن لا يحول بين قرائهم والجواهر ، جواهر المعانى التى تعبر عن تجاربهم العاطفية ، تلك التجارب التى يصوغون فيها نفوسهم ، وكأنهم يزيحون بها عن صدورهم وقلوبهم ما يثقلها من المشاعر والأحاسيس .

فالتعبير الفنى لا يراد لذاته ، وإنما يُراد لما يحمل من أفكار ومعان ، والمعنى هو كل شىء فى الشعر ، هو روحه وجوهره ، أما اللفظ والوزن فعرضان قديمان باليان ، وإن واجب الشاعر أن يطلق العنان لشاعريته المبدعة ، تعبر عن مكنون نفسه فى أبسط الألفاظ والأساليب . ومن هنا كان هذا الشعر ثورة فى تاريخ أدبنا الحديث ، وانقسم الناس إزاءه : أما الشيوخ والمحافظون فقالوا إنه بعيد عن روح الشعر ، وأما الشباب والمجددون فقالوا إن هذا كل مانبتغيه من الشعر . وإنما أعجبهم فيه أنه يخوض ميادين فسيحة ، وأنه شديد الإيحاء والإلهام ، وأن أصحابه أودعوا فيه مقدرةً أو طاقة رائعة من القصص ، فالقصة مبثوثة فى دواوينهم . حقا ليس فى قصتهم متممات القصة العادية من العقدة والحبكة الفنية أو من الحوار الممدود ، ولكن هذا لا يضيرهم ، فإن الشعر الغنائى لا يتحمل القصة بكل رسومها إنما يتحملها على النحو المبثوث فى أشعارهم .

وبهذه الميزات المختلفة كان لشعر المهجر فى تاريخ أدبنا الحديث أفق مستقل بنفسه ، لا يكاد يرتبط فيه بشعرنا القديم ، على الأقل من حيث النظرة العامة ،

إذ له طابعه الفردى ، وله فلسفته ، وله انعتاقه الشعورى ومُثله الإنسانية . وكل ذلك يرتكز على ثقافه واسعة بالآداب الغربية .

غير أن من يتعمق هذا الشعر الجديد ، لا يلبث أن يرى الروح الشرقية مسيطرةً عليه ، وكأن الغرب وكل ما أفاده أصحابه منه ليس إلا ظلالا خفيفة ، بحيث إذا نحينا هذه الظلال عنه برزت لنا منه الملامح الشرقية والعربية بروزا بَيِّنا ، فهى التى ترسب فى أعماقه ، وهى التى تتغلغل فى قاعه وداخله ، بل لا نبعد إذا قلنا إنها كل شىء فيه ، فهى ضميره وصميمه .

٣

ولعل أول ظاهرة تلفتنا عند هؤلاء المهاجرين أنهم بالرغم من استخدام اللغات الأجنبية فى حياتهم اليومية ظلوا يستخدمون لغتهم القديمة العربية فى حياتهم الأدبية ، للتعبير عن عقولهم وعواطفهم . وإن مجرد استخدامهم للغة العربية يلزمهم أن يتصلوا بروحها ، ويخضعوا لسلطانها ، وهذا ما حدث فعلا فإنهم ارتبطوا بأصول قديمة موروثة فيها ، من حيث الوزن ، واللغة ، والصيغة .

وما أرانى أبعد إذا قلت إن أكثر ما عندهم من رواسب بيانية فى الاستعارات والتشبيهات جلبوه من بلادهم ، ومن لغتنا العربية . فثورتهم ليست — كما يظن — ثورة تقطعهم عن الأصول الفنية الموروثة للغتهم . والحقيقة أن مثل هـــذه الثورة لا يوجد فى تاريخ الآداب ، بل كل ثورة تجرى فيها تيارات مختلفة من العتيق والقديم ، وما الثورة الأدبية فى حقيقتها إلا ضرب من التطور .

ولا يعرف التاريخ ثورة منبتَّة الجذور من الماضى ، بل كل ثورة فيها أصول وأحاسيس منه ، بل من أعمق عصوره ، فهذا العربى الأمريكى الذى هاجر من بلاده قد حمل فى أطواء نفسه تاريخ العرب الفنى مدة ثلاثة عشر

قرنا أو تزيد ، بل حمل تاريخ الشرق كله وروحانيته ، وكل ما ألهمه من تصوف وفلسفة وتشاؤم وإيمان بالقدر .

حقا أنه ثار ثورة فنية فى شعره ؛ وهى ثورة واسعة المدى ، إذ ترفدها معرفة واسعة بآداب الغربيين من إنجليز وأمريكيين وفرنسيين وروسيين وهلم جرا . وتميزت الثورة باللون الفردى كما أسلفنا ، ولكن حين نمعن النظر فيها نجد أن أقوى جوانب هذه الثورة يثبت فيه أسلافُ هؤلاء الشعراء وجودهم وخلودهم .

وليس معنى ذلك أن التقليد يغلب عليهم ، فهم مجددون لا شك ، وإنما معناه أنهم يستظهرون فى شعرهم وراثات أسلافهم وضروبا من الحس التاريخى تصل بينهم وبين قدمائهم . فهم لم يحسوا حاضرهم وحده ، بل أحسوا معه ماضيهم إحساسا مستمرا دائبا ، لا ينقطع ، فى كل ما ينظمون من خواطر ويصوغون من عواطف وأفكار . وربما كانت ثورتهم التى يعلنونها أكبر دليل على وعيهم للماضى ، وأنهم لم يفرطوا فى الاتصال به ، والإحساس بجزئياته .

وما تجربتهم الحديثة فى حقيقتها إلا نوع من التفاعل بين حياتهم وحياة أسلافهم . وهناك تجارب كثيرة وخاصة عند شعراء البرازيل وغيرها من مدن أمريكا الجنوبية لا تكاد تتميز فى شىء عن تجارب العصور الماضية إلا من حيث الارتباط بأوضاع زمنية جديدة . ونجد ذلك واضحا عند أكثرهم خيالا وأوسعهم قصصا ونقصد فوزى المعلوف فى رحلته « على بساط الريح » وشفيق المعلوف فى رحلته « عبقر » . وما الرحلتان فى حقيقتهما إلا صورتان جديدتان من رحلة « التوابع والزوابع » لابن شُهيد الأندلسى ورسالة « الغفران » للمعرى وأحاديث « المعراج النبوى » وأحاديث الجن والشياطين فى قصصنا الشعبى والدينى معا .

ونحن نجد على الضفة المقابلة فى الشرق الأوسط رحلات مشابهة لرحلتى فوزى وشفيق ، من ذلك ترجمة شيطان للعقاد وشاطىء الأعراف للهمشرى وثورة فى الجحيم لجميل الزهاوى . وتدور رحلة فوزى على قصة قصيرة ، هى أن شاعرا طار فى السماء ، بينما تدور رحلة عبقر على قصة شاعر زار وادى الجن المعروف باسم « عبقر » . وقد تكون الرحلة الأولى أجود من الوجهة الفنية ، ولكنك إذا تأملت فيها وجدت فوزى يتأثر العرب فى تصوراته إذ يظن أن فى صدر الطيارة جنًّا ، وتحس به الطير فتخاله مستعمرا . وهنا وهناك نجد الروح الشرقية أو العربية بارزة . وكذلك الشأن عند صاحبه شفيق ، بل إن رحلة « عبقر » ليست إلا حشْدا لأساطيرنا العربية عن الجن وشياطينهم وما اتصل بهم من كُهَّان وعَرافين ، وإن اسمى رِشِّق وسَطِيح كاهنى الجاهلية ليلمعان فى الرحلة ، بحيث لا نقرؤها حتى نشعر أنها ليست أكثر من نَظْمٍ لمعارف مبثوثة فى كتب أدبنا العربى .

وإذا كان الجوهر الفنى لعمل فوزى وشفيق شرقيا عربيا ، فإنَّ مَنْ حولهما من شعراء الجنوب أكثر دخولا فى حَيِّز الإطار العربى فروح الشعر عندنا يسيطر عليهم سيطرة بالغة . واقرأ فى نعمة الحاج وأبى الفضل الوليد وإلياس فرحات ورشيد خورى ، فلن تجد أى فارق بينهم وبين شعرائنا .

والحق أن مجموعة الصفات التى ميزنا بها شعراء المهجر إنما تنطبق على الشماليين منهم ، وخاصة أعضاء الرابطة القلمية . ومع ذلك فلا تظن أن هؤلاء يقفون بعيدا عنا ، فلا يزال التياران الشرقى والغربى يسريان فى أعمالهم ، ولا تزال أعناقهم وأرواحهم مشدودة إلى معابدنا وهياكلنا ، وكأن بلادهم قدس الأقداس ، أو كأنها مهبط الوحى من شعرهم ، وفنهم ، فهم يرتبطون بها بروابط قوية .

ولعل أهم ظاهرة توضح هذه الروابط عندهم ظاهرة الحنين إلى وطنهم ،

فهم يتحرقون إليـــه شوقا تحت سماء نيويورك وغيرها من مدن أمريكا ، وأرواحهم ترفُّ فوق بَرَدَى ، وعلى جبل لبنـان وبساتينه ورياضه .

والحنين قديم فى شعرنا العربى ، فنحن نجده منذ العصر الجاهلى ، إذ كانت تدور حياة العرب على الرحلة من كلأ إلى كلأ ، ثم جاء الإسلام وخرجوا من جزيرتهم مجاهدين فى سبيل الله ، فبكوا ديارهم ، ونَعَوْا غربتهم وأنفسهم . وقصيدة مالك بن الرَّيْب مشهورة ، تلك القصيدة التى رثى فيها نفسه حين ألم به الموت فى خراسان . ويحتل هذا النوع من الشعر صفحا كثيرة فى أدبنـا ، تارة يبكى الشعراء منازل الحبيبة ، وتارة يَهيج الحمام أشواقهم ، وقد تهيجه ريح الصَّبا وغيرها من الرياح . وكان نزوحهم الدائم عن أوطانهم سببا فى استمرار هذا الحنين ، وأبيات عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتحيته للنخلة الأولى التى غرسها على النهر الكبير ذائعة ، وعبَّر ابن الرومى عن العلة التى يحب من أجلها الناسُ أوطانهم ، وجَمَعَ ما فرَّقه الشعراء من ذلك فى أبيات ، يقول فيها :

ولى وطنٌ آليتُ ألاَّ أبيعَهُ ... وألاَّ أرى غيرى له الدهرَ مالكا
عهدتُ بهِ شَرْخَ الشباب ونعمةً ... كنعمة قومٍ أصبحوا فى ظلالكا
فقد ألفتْـه النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن غاب غودرتُ هالكا
وحَبَّبَ أوطان الرجال إليهمُ ... مآربُ قَضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتْهُمُ ... عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا

وابن الرومى يصور فى هذه الأبيات محبة الوطن ، ويفصح عن العلة فيها والسبب ، وهى محبة عامة تشترك فيها كل الشعوب والأمم . وكل أشعار هؤلاء المهاجرين تدل على أنهم لم ينسوا وطنهم يوما ، وهل يستطيع أحد أن ينسى وطنه وقد ترك فيه أباه وأمه وإخوته وأحبته وترك ملاعب صباه

وآماله وأحلامه ؟ إنه ليذكر هذه الأحلام كلها أقبل النور أو أقبل الظلام ، يذكر الأمس الجميل ، ويلتفت حوله فلا يجد إلا فراغا . لقد سافر فى طلب العيش والحياة الكريمة ، فحقّق من هذه الحياة فوق ما كان يأمل ، ولكنه فقد قلبه وراءه ، وأحسّ إحساسا عميقا بالوحشة والغربة ، وظلّلت نفسه سُحُبٌ لا تفنى من الهم والحزن :

وارحمتا للغريب فى البلد النّـــازح ماذا بنفسـه صَنعا
فارق أحبابه فمـا انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

إنها غربة الأبد ، وهو يرى نفسه أسيرَ هذه الغربة ، أسير بحار ومحيطات ، فيفزع إلى ذكرياته ، ويشتد تعلقه بوطنه ويشتد حنينه إليه . وقد يكون هذا الحنين أهم عنصر يطبع شعر المهجر بطابعه ، فالجنوبيون والشماليون جميعا مشدودون فى أشعارهم بأسلاك وطنية تخفق لها قلوبهم وأفئدتهم ، وليس هناك حادث يحدث فى بلدهم أو ملمة تلم به إلا ويهتزون لها ويصيحون ، مع المحبة واللوعة الشديدة ، واستمع إلى أبى الفضل الوليد يقول : (١)

فديتُكِ يا أرضَ الشآم فمنك لى ثراءٌ على فقرٍ وسكرٌ بلا خَمْرِ
متى أطأ التُّربَ الذى هو عَنْبَرٌ
وأملأ من أرواح تلك الرُّبَا صَدْرِى ؟

وهو فى ذلك يعبر عن إخوانه ومدى الحسرة على فراق أوطانهم ، ومدى الشغف بها والشوق إلى لقائها ، ويقول نعمة الحاج : (٢)

تذكرتُ أهلى فى النَّوَى وبلاديا وقد طال شوقى للحِمَى وبماديا
تذكرت هاتيك الربوعَ وأهلها وياحبذا تلك الربوع الزواهيا

---

(١) انظر ديوانه « أغاريد فى عواصف » ص ٧٠ .
(٢) ديوانه ص ١٧٧ .

تطيرُ لها نفسى من الوَجْد والجوَى ... ويُمسى لها دمعى على الخد جاريا
وتهتز من شوقى إليهـــا جوارحى ... كما اهتز غصنٌ مال للريح حانيا
فلا الشوقُ يُدنينى ولا الفكرُ نائيا ... ولا الدمعُ يُجدينى ولا القلبُ ساليا
وداعا وداعا يا بلادى فإننى ... أودِّع مشتاقا إلى العَوْد ثانيا
« وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كلَّ الظن أن لا تلاقيا »

والقصيدة طويلة ، وقد دارت على البيت الأخـــير ، وهو بيت عربى قديم ، وكأنه يقع منها موقع القطب من الرَّحى . ولعل فى اقتباس الشاعر له ما يدل على أن هذا التعلق الشديد بالوطن أتاح لهؤلاء المهاجرين أن يحيوا حياة عربية متبدية وسط ما تقع عليه أعينهم من حياة حديثة ومدنية جديدة . ولم يوغل شاعر فى هذه النزعة إيغال رشيد أيوب فقد أكثر من الحنين إلى وطنه ، ومن بديع قوله تحت عنوان « بلادى » (١) :

خلقتُ ولكن كى أموت بهاحبا ... لذاك ترانى مستهاما بهـــا صَبَّا
وما أنا ممن إن ترامت به النَّوَى ... تروعه الدنيا ولو ملئتْ رُعْبَا
ولكنَّ لى فى سفح صنِّين موطنا ... يعز علىَّ أن أفارقه غَصْبَا
إذا ما ذكرت الأهل فيه فإننى ... لدى ذكرهم أستمطر الدمعَ مُنْصَبَّا
أعلِّل نفسى إن سئمتُ بعودةٍ ... ولكنها الأيام ، تَبًّا لهـــا تَبَّا
فلله هاتيك الرُّبَا وربوعها ... فإنىَ قد ضيَّعت فى تربها القلبا
ويا حبَّـــذا ذاك النسيمُ فإننى ... لينعشنى ذاك النسيمُ إذا هَبَّا

ويُكثر رشيد فى أشعاره من ذكر الغدران والينابيع الجارية فى وطنه « لبنان » وإنه ليرقبه فى الأفلاك حين يجنّ الظلام ، وفى الأضواء حين تطلع شمس النهار ، وما تزال توسوس له به نفسه . واستطاع إلياس فرحات أن يرسم رسما دقيقا ملاعبه الفاتنة فى قصيدته « بين الطفولة والشباب (٢) » ،

---

(١) انظر الأيوبيات ص ٣٩ . (٢) بلاغة العرب فى القرن العشرين ص ٢٠٣ .

أما نسيب عريضة فلمح سَلَّة معلقة على حانوت، وقد غصَّت ببعض الثمار مما كان يعهده فى بلاده ، فطار قلبه نحو أوطانه ، وحلَّق خياله فوق ديارة ، وأنشد قطعة رائعة يصور فيها هذا الحلم اليقظ الذى انتشت فيه روحه، وسكر قلبه(١). وكثيرا ما كان يُمَثَّل له وطنه فى هذه الرُّؤَى الصادقه ، فإذا هو يتشح بهذه الألوان المثيرة التى تجمع له ذكرياته ، كما تجمع له لوعته وحرقته واشتياقه . واسمعه يقول فى قصيدته « أم الحجار السود » يعنى بها وطنه « حمصا (٢) »:

رُفِعَتْ لطَرْفِك من مكانٍ قاصِ
تختال بين حدائقٍ وعِراصِ
أعرفتَ يا قلبى عروس العاصى ؟ (٣)

مَحبىَ أمانينا ومَحْيَا الجُودِ ونعيمَ راضٍ بالوجود سعيدِ

أعرفتها تلك الربوع العاليه
ما بين لبنانٍ وبين البادية ؟
الذكريات وقد برَزْن علانيهْ

نادَين عنك بحَسْرة المطرودِ يا حمصُ يا بلدى وأرض جدودى

يا جارةَ العاصى لديك السُّؤْدُدُ
لبنانُ دونك ساجدٌ متعبِّدُ
هو عاشقٌ ، من دمعه لك موردُ

وارحمتا لمتيمٍ مصفودِ يَسْقى الهوى من قلبه الجلمود !

---

(١) بلاغة العرب ص ٢١٨ .

(٢) نسيب عريضة فى مناهل الأدب العربى ص ١٠٧ .

(٣) العاصى : نهر حمص .

عاصيك كوثرُنا ، لنا فى وِرْده
طعمُ الخلود ونكْهَةٌ من شهده
هيهـــات يوما نرتوى فى بُعْده
ونُبالُ حُرْقةَ أضلعٍ وكُبُود إلا بسَلْسَلِ مائه المفقودِ

يادهرُ ! قد طال البعاد عن الوطنْ
هل عودةٌ تُرْجىَ وقد فات الظَّعَنْ ؟
عُدْنى إلى حِمْص ولو حَشْوَ الكفَنْ
واهتِفْ : أتيتُ بعائرٍ مردود واجعَلْ ضريحى من حجارِ سودِ

وهذا تعلق شديد بالوطن وحنين إليه تفيض به نفس نسيب عريضة فى هذا الشعر الرائع الذى يبث فيه مواجده ، ويذيع فيه مشاعره . وإنه ليرتجف حين يذكر بلده وحجارتها السود ونهرها ، إذ يذكر فردوسه المفقود ، وما كان يَهْنَأ به من شراب الخلود . وإنه ليتمنى أن يعود إلى تلك الديار ومعاهدها التى حَلَّ بها تمائمه ، ومسَّ ترابُها ، بل مست صخورُها ، جِلده ، وإن كل جزء من روحه وجسمه ليرجو العودة إلى مصدره ومنبته . وهو مؤمن بأن روحه لا تلبث حين تفارقه أن تُرَدَّ إلى أصلها ، وترفرف على أم الحجارة السود ، أما جسمه فإنه هو الذى يخشى أن يُدْفَنَ بعيدا عن مغرسه ، ويُرْمى غريبا عن كهفه ، ولذلك يتوسل إلى صحبه أن يعودوا به إلى وطنه ، يعودوا بهذا العائر الذى ضل طريقه المضيئة وما يشع عليها من شمس الوطن ، وما يغطيها ويسترها من ظلاله ، يعودوا بالجسم إلى الأرض التى خرج منها ودرج عليها ، إلى أمه لتضمه إلى صدرها ، وتفسح له منزلا مباركا طيبا بين منازلها .

وليس إيليا أبو ماضى أقل تعلقا وشغفا بوطنه من نسيب ، وإنه ليذكره فتنساب فى نفسه ينابيع الفرح بذكراه ، ويمضى فى شعره به مفاخرا معتزا ،

يقول من قصيدة بعنوان « لبنان » (١) :

اثنان أعيا الدهرَ أن يبليهما ... لبنانُ والأملُ الذى لذويهِ
نشتاقه والصيف فوق هضابه ... ونحبُّه والثلج فى واديهِ
وإذا الصبايا فى الحقول كزهرها ... يضحكنَ ضحكا لا تكلُّف فيهِ
هنَّ اللواتى قد خلقنَ لىَ الهوَى ... وسقينتى السحرَ الذى أسقيهِ
هذا الذى صانَ الشبابَ من البِلَى ... وأبَى على الأيام أن تطويهِ
ولربما جبَلٌ أشبِّهه بهِ ... مسترسلا مع روعة التشبيهِ
فأقول يحكيه وأعلم أنه ... مهما سما هيهات أن يحكيهِ
وطنى ستبقى الأرضُ عندى كلها ... حتى أعودَ إليه أرضَ التِّيهِ
سألوا الجمال فقال : هذا هيكلى ... والشعر قال بنيتُ عرسى فيهِ
يا صاحبى يَهْنيك أنك فى غدٍ ... ستعانق الأحبابَ فى ناديهِ
وتلذّ بالأرواح تعبق بالشذا ... وتهزُّك الأنغام من شاديهِ
إن حدَّثوك عن النعيم فأطنبوا ... فاشتَقتَه لا تنس أنك فيهِ

فهو يفصح عن محبته له ، وهو يضعه فوق كل الديار والأوطان ، ويراه هيكل الجمال وعرش الشعر والنعيم الأبدى الخالد . وفى قصيدة أخرى عنوانها « الشاعر (٢) فى السماء » يقص علينا أن العناية الإلهية رفعته من هوّة الشقاء إلى قبة السماء ، وشادت له قصرا فوق السماك ، ومدت ملكه على الفضاء ، وصار فى طاعته الضياء والريحُ يصرفها كيف يشاء . غير أنه لم يزل حزينا مكتئب الروح ، حينئذ سل منه ربه شوقه إلى الخمر والنساء ، ولكنه ظل فى الحزن والبلاء ، فسأله ربه ماذا ينقصه ؟ هل يشتهى أن يكون طيرا أو نجما أو يشتهى شيئا من زينة الحياة الدنيا ؟

---

(١) الخمائل (الطبعة الثانية) ص ٨٠ .

(٢) الخمائل ص ٦٧ .

فقلت : يا ربِّ فصلُ صيفٍ في أرض لبنانَ أو شتاء
فإنني هنـــــا غريبٌ وليس في غربةٍ هنـــاء

وعلى هذه الشاكلة نرى هؤلاء المهاجرين جميعا فارقوا وطنهم ، ولكنه فراق الجسم ، أما الروح فظل عالقا به ، يطوف بمعاهده، ويرفرف فوق بساتينه وترابه وصخوره .

وهم في هذا كله إنما يعبرون عن روح عربية أصيلة ، وهل حياة العرب كلها إلا حنين وإلا ذكرى ، وهل هم منذ كانوا إلا رُحَّل ، رحلوا في باديتهم أثناء العصر الجاهلي من عُشْب إلى عشب ، ورحلوا في مشارق الأرض ومغاربها في أثناء العصور الإسلامية من بلد إلى بلد . ودائماً في حقائبهم ذكرى ملاعبهم الأولى ومدارج شبابهم ، وما بكاء الأطلال والديار إلا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نما معهم على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنة .

٣

وهذا الحنين الذي نعده امتدادا واضحا للروح العربية بل الروح العربية البدوية هو المفتاح الدقيق لفهم شعر المهجر وحلّ طلاسمه ورموزه . ولعل أول ما يتراءى لنا من هذه الرموز والطلاسم أننا نجد فيه دعوة حارة إلى الطبيعة ، كأن أصحابه ينكرون العالم الصناعي الذي انتقلوا إليه ، ينكرون ما يعتمد عليه من إحلال الآلة محل الإنسان .

وقد يكون هذا طبيعيا لشعراء يحسون فرديتهم ، ويجدون في هذه الحياة الآلية ما يضعف تلك الفردية ، إذ يصبح الإنسان عبدا للآلة بعد أن كان سيدها ، يصبح مسخَّرا لها بعد أن كان يسخِّرها . وهم لذلك يتمردون على تلك الحياة ، يعافونها ويزدرونها ، ويفرون منها إلى حياة الطبيعة والريف ، حيث المعيشة البسيطة والجمال الساذج .

وليس ذلك كل ما يؤذي شاعر المهجر في المدنية الجديدة التي يعيش فيها

بل يؤذيه أيضا ما فيها من اضطراب وتفكك ، وما يحسه بها من ملل وسأم ، وإنه ليمد بصره فيرى الحياة كلها من حوله قامت على ضرب من الثنائية التى صاغها الإنسان لنفسه ، فإذا هو يجعل فى قيود ثنائية يقابل بينها ، من مثل السيادة والعبودية ، والإيمان والكفر ، والسرور والحزن ، والعدل والظلم ، والعلم والجهل ، والخير والشر . وينفذ جبران فى قصيدته « المواكب » إلى تصوير هذه الثنائية المقيتة ، وكيف أن الإنسانية ضلت طريقها حين استراحت إلى دروبها ، ولم تتجه إلى الطبيعة أو كما يسميها « الغاب » حيث الحياة النقية الكاملة ، وحيث لا سيادة ولا عبودية ، ولا خير ولا شر ، ولا غير ذلك من هذه القضبان التى تصنع الإنسانيه منها سجنها المظلم المخيف ، واسمعه يقول فى مطلع مواكبه :

الخيرُ فى الناس مصنوعٌ إذا جُبروا ... والشرُّ فى الناس لا يَفنى وإن قُبِروا
وأكثرُ الناس آلاتٌ تحرِّكها ... أصابعُ الدهر يوما ثم تنكسِرُ
فلا تقولنَّ هذا عالمٌ عَلَمٌ ... ولا تقولنَّ ذاك السيد الوَقُرُ
فأفضلُ الناس قطعانٌ يسير بها ... صوتُ الرعاة ومن لم يمش يندثر

ليس فى الغابات راعٍ ... لا ولا فيها القَطيعْ
فالشتا يمشى ولكن ... لا يجاريه الربيـــع
خلق الناسُ عبيدا ... الذى يأبى الخضوع
فإذا ما هبَّ يوما ... سائرا ســـار الجميع

وما الحياة سوى نومٍ تراودهُ ... أحلامُ من بمرادِ النفس يأتمرُ
والسر فى النفس حزنُ النفسِ يستره ... فإن تولَّى فبالأفراح يستتر
والسر فى العيش رغد العيش يحجبه ... فإن أزيل تولَّى حجبه الكدرُ
فإن ترفعت عن رغدٍ وعن كدرٍ ... جاورتَ ظلَّ الذى حارت به الفكر

ليس فى الغابات حزنٌ ... لا ولا فيها الهمومْ

فإذا هبَّ نسيمٌ لم تجىء معه السمومْ
ليس حزنُ النفس إلا ظلُّ وهمٍ لا يدوم
وغيومُ النفس تبدو من ثناياها النجوم

ويظل فى هذا اللحن، فالحياة فيها سُكْر والغابات ليس فيها سكر من مدام أو خيال، والحياة فيها الدين والكفر وليس فى الغابات دين ولا كفر قبيح، والحياة فيها العدل والظلم وليس فى الغابات عدل ولا عقاب، والحياة فيها القوة والضعف وليس فى الغابات قوى ولا ضعيف. وما يزال يسترسل فى وصف هذه الاثنينية التى تضغط بثقلها على صدر الإنسان، والتى لا يستطيع أن يتخلص منها إلا بنزوحه إلى الغاب، حيث يخلص فيه من أوزار المدنية، وسخافاتها وسيئاتها.

وكل ذلك ثورة على حياة المدينة ودعوة إلى حب الطبيعة وهى دعوة واسعة يدعو فيها جبران مواكب الإنسانية جميعا إلى عالم الغاب، حيث تشاهد ذخرا من الكمال المطلق لاحدود له ولانهاية. ومثل هذه الدعوة شائعة بين شعراء الغرب فى أول القرن الماضى ولا يزال لها شواهد ماثلة فى عصرنا. ومن أجل ذلك قد يظن ظان أن هذا أثر غربى برز عند جبران كما برز فى صور أخرى عند غيره من زملائه فى المهجر؛ ولكن بشىء من التأمل نستطيع أن نردَّ هذا الجانب عنده وعند زملائه إلى فكرة الحنين إلى الوطن الذى فقدوه، وكثيرٌ منهم من الشام، من لبنان وسوريا. فهذا الغاب الذى يفكر فيه جبران ليس إلا لبنان وطنه، ذلك الفردوس الذى فقده، وأرض الأحلام التى غابت عن بصره وراء الأفق البعيد، وهو ينظر إليها من نيويورك، فيرى المسالك قد انسدت دونها، فيتألم وتظلم الدنيا فى عينيه، ويتمنى لو انسلخ من محيطه الصاخب محيط الآلة الصماء والبشرية المعذبة، ليتحد بوطنه، حيث لا يقتحم عليه الحياةَ

إنسان ، وحيث يتمتع بمناظره ، ويشعر كأنه يحمله فوق صدره ، أو كأنه زهرة من أزهاره .

إنه يعيش الآن فى حياة ذات شقين ، تقام فيها حدود دائما تفصل بين شيئين : خير وشر ، ونور وظلام ، وضحك ودموع ، والحياة لا تحنو عليه ، بل إنها تضغط على نفسه بهموم ووحشة وغربة وبهذا الوجود المنقسم دائما إلى شطرين . إنه يتعذب ، وإنه يريد أن يخرج من هذا العالم ويرتدّ إلى عالمه القديم حيث كان يعيش فيما يشبه تباشير الخلود ، يقول فى وصف غابة (١):

ليس فى الغابات موتٌ لا ولا فيها القبورْ
فإذا نيسانُ ولّى لم يمت معْه السرور
إنَّ هول الموت وهمٌ ينثنى طىَّ الصدور
فالذى عاش ربيعًا كالذى عاش الدهور

وما هذا الغاب الذى ينفى عنه الموت ويثبت له الخلود إلا لبنان العزيز الذى اندمجت حياته فيه ، وكأنه لا يعيش فى نطاق نفسه ، إنما يعيش فى نطاق وطنه ، متحدا به حياةً وفناء ، ووجودا وعدما .

وليس جبران وحده الذى يُرَدِّدُ هذه النغمة ، فنسيب عريضة يقفو أثره فى هذا الاتجاه ، وكأنه الأخ الشقيق ، واستمع إليه يقول (٢) :

يا نفس ! رُحماكِ أين تَمْضى فما أمامى سوى قبورْ
قد سامكِ العقلُ سَوْمَ عِلْجٍ ما لا تطيقين من أمور
فاتركِ العقلَ حيث يبغى فليس للعقل من شعور
أتتركين الأنامَ تركا نَحْرِق من بعده الجسور

فصاحت النفسُ بى وقالت : مالى وللناس والزِّحامْ

(١) المواكب ص ٢٨ . (٢) نسيب عريضة ص ٥٦ .

أصبتِ يا نفسُ فاتبعيني فليس كالغاب من مقام
يا غاب جئناك للتعرِّى أنا ونفسى ولا حَرام

فالدنيا من حوله كلها قبور ، وهو لا يؤمن بالعقل وشريعته ، وإنما يؤمن بالنفس والشعور ، وهو ينزح إلى الغاب ، حيث لا ناس ولا زحام ، ولا قبور ولا أكفان ، وإنه ليريد أن يعانقه ، بل إنه ليتعرَّى فيه وتتعرى نفسه ، كأنه يريد أن يسكب من ينابيعه على أدران المدنية التى علقت به ، حتى تزول وتفنى .

وارجع إلى قصائد الغاب كلها عند شعراء المهجر فستجدها جميعا ليست إلا نفحات حب دافقة للوطن المفقود الذى خفى عن أنظارهم ولا يزال يدوِّى فى قلوبهم صياحُ النشوة به ، وكأنه سهام تنفذ إليهم من حفاف السماء . وفى غمرة هذه النشوة ينشدون تلك الألحان العذبة ، يتغنون فيها الغاب ، وربما كانت قصيدة « الغابة المفقودة » لإيليا أبى ماضى أوضح دليل على ما نقول ، وهى تجرى على هذا النمط (١) :

يا لهفةَ النفسِ على غابةٍ كنتُ وهندًا نلتقى فيها
أنا كما شاء الهوى والصِّبا وهْى كما شاءت أمانيها
تكاد من لطف معانيها يشربها خاطرُ رائيها
آمنت بالله وآياتـــهِ أليس أن اللهَ باريها ؟
نباغتُ الأزهار عند الضُّحى متكئاتٍ فى نواحيها
ألْوَى على الزنبق نسرينها والتفَّ عاريها بكاسيها
واختلجت فى الشمس ألوانُها كأنها تذكر ماضيها
تآلفتْ فالماءُ من حولها يرقص والطيرُ تغنِّيها
من لقن الطير أناشيدها ؟ وعَلَّم الزهرَ تآخيها ؟

(١) الخمائل ص ٨٨ .

ياهندُ هذى معجزاتُ الهوى وإنها فينا كما فيهـــا
لا تستحى الزهرُ بإعلانها فما لنا نحن نُـواريها
وتهتف الطيرُ بها فى الرُّبَا فمـــا لنا نحن نعمِّيها
لله فى الغـــابة أيامنا ما عابَها إلا تلاشـــيها

ويمضى إيليا فى وصف هذه الغابة المفقودة وصفا لا يشك من يقرؤه أنه إنما يصف لبنان بشحاريره وجباله وأوديته وفاكهته الشهية وأضوائه وأكاليل زهوره . وما يزال حتى يأسى لما أصاب غابته ، فقد فصَل زمانُ الهوى ، وامتدت يد الإنسان ، فاستأصلت شجر الغابة ، وطردت الطير عن أعشاشها ، وأقامت الدور والقصور . وهذا كله إنما هو رمز المدنية الأمريكية الجديدة ولبنـان الطريدة : جنة الأحلام السندسية التى نُزِعَ منها الشاعر قبل الأوان ، واقرأ هذا التقديس للغاب أو للبنـــان عند ميخائيل نعيمة إذ يقول (١) :

هو ذا قد أقبـــل أترابى أهلاً أهلاً بأصيحابى
الناسُ تسير إلى القدّا س ونحن نكرّ إلى الغاب

أشجارُ الغاب تحيِّينا وطيور الغاب تناجينا
وزهورُ الغـاب تصافحنا ونصافحهـــا وتهنِّينا

الريحُ تمرُّ بنـــا خَبَبا فيَميس الحورُ لها طربا
والشمسُ بلطفٍ تلثم أو جهنَا وتذرُّ لنـــا ذهبا

أغصان الغـــاب تلاعبنا وهوامُّ الغـــاب تداعبنا
وصخور الوادى تدعونا وصدى الأجراس يعاتبنا

ها هم أترابى قـد سرحوا فى الغـاب يقودهمُ المرحُ
وبقيت أنا وحدى سكرا نآ يرقص فى قلبى الفرحُ

(١) همس الجفون (الطبعة الثانية) ص ٤٢ .

فجلست على كتف النهر ما بين العوسج والزّهر
العالمُ مملكتي وأنا سلطان العالم والدهر

وما هذه المملكة إلا لبنان التي حلم بها الشاعر حلما ذهبيا، بل إنها لترتفع متوهجة أمام عينيه في اليقظة فيملأ البشر قلبه ، وتعود إليه ذكرياته مع صحبه هناك ، وهم يجتمعون أسرابا أسرابا ، وكأنهم يجتمعون في قداس .

وليس الغاب وحده هو الذي يرمز به شعراء المهجر عن لبنان أو سوريا وبلدانهم هناك ، بل إن كل ما يجري في شعرهم من ذكر للفجر والضياء والنور والخلود والبقاء ، إنما هو رمز الوطن الخالد ، رمز الأم الكبرى التي تولّهوا بحبها ، والتي تتدفق في قلوبهم ، وكأنها المحيط الخضم .

ومعنى ذلك أن الطبيعة في شعر المهجر ليست أثرا غريبا ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، دخل إلى شعرهم عن طريق الآداب الأوربية والأمريكية . قد يكون لذلك ظل وتأثير في عملهم، أما بعد ذلك فشعرهم في حقيقته وجوهره حسراتٌ على وطن مفقود . فالحب ليس حبّ غاب من حيث هو ، وإنما هو حب وطن لا يزال يشرق على روح صاحبه ، وكأنه الوحي المضيء الملهم .

٤

وإذا كان الوطن هو الذي دفع شعراء المهجر إلى الحديث عن الطبيعة والغاب حديثَ المحب الوامق ، بل حديث العابد الخاشع ، فإنه هو الذي ملأ نفوسهم وأشعارهم بالحزن القاتم . فأنت لا تقرأ لشاعر عربي في أمريكا الجنوبية أو الشمالية ، حتى تشعر بلذع الأسى فيه لذعا يكاد يخنقه ، واستمع إلى فوزي المعلوف إذ يصور اليأس القاتل ، يقول في رحلته على بساط الريح (١) :

ألف اليأس قلبه ، فهْو واليأ سُ يحاكي بثينةً وجميلا

(١) على بساط الريح ص ٧٨ .

وإذا اليـــأسُ صدَّ عنه قليلا راح يبكى على نَـواه طويلا
وإذا ما النسيمُ مرَّ عليه فعليلٌ أتى يعود عليـــلا
حائر الطرف شارد الفكر يحكى مدلجا فى الظلام ضلَّ السبيلا

وهذا اليأس وما يدمج فيه من حزن مصدره الغربة والإحساس بالشقاء بعيدا عن الوطن ، والشعور بالحرمان من الأهل والأصدقاء ، فتبدو الحياة وكأنها القفر الموحش ، ويبدو الوجود مظلما مخيفا ، بل مرعبا فظيعا ، فإذا الشاعر لا حول له ولا قوة ، وإذا هو مستسلم للحزن واليـأس ، وإذا هو لا يملك غير دموعه يرسلها أنات وزفرات . وإنه ليشعر دائما بأنه غريب ، وأنه فى عزلة عن الناس ، وأنه ليس بمن حوله ، ولا من حوله منه ، فيعيش كالطير السجين فى قفص قضبانُه من ذهب ، ولكنه لا يهنأ يوما ، لأن جوَّه وأفقه الذى يرفرف ويحلق فيه سُلِب منه .

ومن هنا كان الطابع العام لشعر المهجر كله هو طابع التشاؤم ، فالشاعر يشخص ببصره حوله فلا يجد ما يعزِّيه أو يسليه فضلا عما يسره أو يفرحه ، إنما يجد البؤس والشقاء والحرمان والألم . وحتى حيـاة البشرية من حوله يجللها السواد ، فلا أمل فى مستقبلها ، بل مستقبلها مظلم كحاضرها لا يبشر بالخير ، إنما يبشر بالشر وبالحرب وبالدمار . ولم ينته هذا الشعور بشعراء المهجر إلى الثورة على الحيـاة ، بل انتهى بهم إلى الشفقة على بنى جنسهم ، على نحو ما نرى عند نسيب عريضة إذ يقول (١) :

عَلَّقْتُ عودى على صَفصافة الياسِ
ورحتُ فى وحدتى أبكى على الناسِ
كأنَّ فى داخلى قَبْرًا بوحشته دفنتُ كلَّ بشاشاتى وإينـــاسى

(١) نسيب عريضة ص ١٢٤ .

يا قبرَ آمالِ نفسي في ثَرَى كَبِدي ... يسقيك صوبُ دمٍ من قلبيَ القاسي
زرعتُ فوقك أزهارا بلا أَرَجٍ ... سوداء مرَّت عليها نارُ أنفاسي
ما أروع الزهرة السوداءَ قد سُقِيَتْ
بدمعة القلب تحميها يَدُ اليأسِ

يا يأسُ صُنْها فإني قد قنعتُ بها ... ولست أبدلها بالورد والآسِ
وأنتَ والحزنُ كونا في الضلوع معي ... إني عهدتكما من خير جُلاَّسِي
كتمت أمركما دهرا فضاق بنا ... ذرعا فؤادي وأفشى السرَّ أنفاسي
فإن أَسِرْ في ظلام الليل مُستَتِرا ... فالحزن يسطع من عيني كنبراسِ
حُزْني غناءَ فلو فرَّقته هبةً ... على النفوس لأثرتْ أنفسُ الناسِ

فهو يبكي على نفسه وعلى الناس، وتتراءى له الدنيا من حوله على اتساعها كأنها قبر ضيق . وقد دفن في هذا القبر كل آماله ومسراته ، واستنبت فوقه أزهارا سوداء ، هي أزهار يأسه وتَعْسه وحزنه . وهو سعيد بها إذ اتخذها جميعا ذخره من دنياه ، وهو لا ينتهي إلى الانكماش في حدود نفسه ، بل إنه ليفكر دائما في الناس من حوله وآلامهم ومتاعبهم . وإنه ليأسى لهم جميعا : مَنْ سار منهم على الطريق ، ومن ضلَّ عن الجادَّة ، واستمع إليه يقول (١) :

جاش في قلبي عزيفٌ من وَتَرْ ... يُسكر القلبَ ويُفشي ما سَتَرْ
ضاق ذَرْعا بالأسى لكنَّه ... ظلَّ في كتمانه حتى انفجَرْ
فاسمعوا أنَّاته تَرْوِي لكم ... رَجْعَ ما ردَّده صوتُ الغِيَرْ
عن ظلام العيش، عن سجن البقا ... عن فيافي التيه ، عن ظلم القدر
عن ليالي الويل، عن قَطْع الرجا ... عن دنوِّ البَيْن، عن بعد المفرّ

(١) نسيب عريضة ص ١٣٤ .

عن خداعٍ ، عن شقاءٍ ، عن شجًا ... عن فراقٍ ، عن دموعٍ ، عن سَهَرْ
عن شقيٍّ ، عن أبيٍّ عاثرٍ ... عن شريدٍ ، عن نبيٍّ محتقَرْ
عن فقيرٍ حاسدٍ طيرَ السما ... عن طريدٍ ماله العمرَ مقرْ
عن عذارَى بذلتْ أعراضها ... فى سبيل العيش بئس المتَّجرْ
عن ديارٍ بعد مجدٍ خملتْ ... وبنوها الصِّيدُ صاروا فى النَّفَرْ
ما بقى من عزِّ أجدادٍ لهم ... غيرُ ذكرى مَنْ غداضمنَ الحفَرْ
عن . . وكم من أنَّةٍ فى وترى ... فى صداها عَنْعناتٌ عن خَبَرْ
باطلا ترجون لحنا مفرحا ... قطَّعت أطرابَ أوتارى العِبَرْ
فدعوا قلبى مع الباكين فى ... مأتم العيش على حال البشرْ

فنسيب مملوء حزنا على البشرية وما تتردَّى فيه من ألم وشقاء ، بل هو مملوء يأسا ؛ لكن يأسه لا ينتهى به إلى تمرد على القضاء ، فهو فى شعره دائما وادع رقيق ، وهو لذلك يبكى مع الباكين على البشر وما هم فيه من عذاب واصب . وما الحياة ؟ إنها ليست إلا تأوهات وزفرات . وإن الشاعر ليحدِّق ببصره فيها فلا يرى إلا تلك الأشباح القاتمة الخرساء ؛ أشباح الحزن والهم واليأس والألم ، فيندفع فى تصويرها مخاطبا قلمه ومتحدثا عنه(١) :

أوهِ ! ألم يُكتَبْ لهذا القلمْ ... إلا بأن يشكو الأسى والألمْ
يا قلمى الشاربَ خمرَ الشَّجا ... والمسمعَ الطِّرْسَ صريرَ النِّقَمْ
من أىِّ غُصْنٍ قصَّكَ المُبْتَرى ؟ ... من أىِّ غيمٍ قد سقتك الدِّيَمْ ؟
أفى حِمَى الغِربان ثُقِّفْتَ أم ... بين خوافيها ألفتَ الظُّلَمْ ؟
نشأتَ نعَّابا فلا غرو أن ... تحسب أن النّعبَ كل النَّغَمْ
أم كنتَ عودا عند مُستَنْقعٍ ... فى نبتةٍ تمتصُّ ماء الرِّمَمْ
أم عشتَ فى ظلّ من الغاب لم ... تشرق عليه الشمسُ منذ القدم

(١) نسيب ص ٩٥ .

فاسكُبْ على الأبيض من أسودٍ يلذع فى الأوراق لذع الحُمَمْ
ما الحِبرُ ما تنفثه ناقما ذاك سويداءُ الحشا يا قَلَمْ

وليس قلم نسيب هو القلم الشاكى الحزين وحده بين أقلام شعراء المهجر ، بل كل أقلامهم محزونة يشوبها اليأس، ولكن فى هذا الإطار الذى نجده عند نسيب ، إطار العطف على الإنسانية . ولعل مما يتصل بهذا اليأس وما يطوى فيه من حزن عندهم كثرة تفكيرهم فى الموت ، بل إننا نجد ميخائيل نعيمة ينظر من حوله فى الأرض فلا يرى أمًّا رءوما ، وإنما يرى قبورا تدور ، فيقول(١) .

هَلُمِّى ! هلمى نحيِّى القبورْ ونمتصَّ منها رحيقَ الدهورْ
عسانا إذا ما رأينا عظاما يفتِّق منها الربيعُ الزهور
عرفنا بأن الفناء بقاءٌ وأن الحياة قبورٌ تدور

تعالىْ تعالى وخلِّى الكفاحْ لأجل الصلاح وضد الطلاحْ
وقولى إذا ما همستِ سلاما بأذْن المساء فردَّ الصباح
أليس الصباحُ شقيقَ المساء أليس الطلاحُ شقيق الصلاح

بعينيكِ نورٌ تراه العيونْ جميلا فتضحك منها المنونْ
لأن المنايا تحدِّق فيك بعين الزمان التى لا تخون
فتبصر فى مقلتيك ترابا وتبصر دودًا وراء الجفون

فخلِّى جمالا يراه الغرورْ وليست تراه عيون الدهور
وخلِّى الجهادَ وخلى الطموح وخلى القصور وحيِّى القبور
ودورى مع الكون جيلا فجيلا فهل نحن إلا قبورٌ تدور

---

(١) همس الجفون ص ٦٨

وكل هذا حزن وتشاؤم ، وكل هـذا من أثر الغربة وفراق الوطن ، فقد انطبعت نفوس القوم بطوابع حزينة يائسة شديدة اليأس ، يائسة من العودة إلى ديارها ، ويائسة من حياة الناس حولها . وليس هذا الطابع الحزين القاتم طابعا جديدا بالقياس إلى العرب والشرق ، فقد عرف العربُ أبا العلاء شاعر التشاؤم الكبير كما عرف الفرسُ عمرَ الخيام وألحانه اليائسة الحزينة ، وهل هذا الشعر الذى قرأناه حتى الآن لنسيب عريضة أو لميخائيل نعيمة إلا ترديد لمثل قول أبى العلاء :

سِرْ إنِ استطَعْتَ فى الهواء رويدًا
لا اختيالا على رُفَات العبـــاد

وقول الخيام :

يا لزَهْرٍ مونقٍ رف على شطْءِ الغـديرِ
أتراه قد نما فوق خـــــدودٍ وثغـورِ
فتيقَّظْ لا تطأْه باحتقـــــارٍ وغـرورِ
فلقد أينع من تربة وَجْـهٍ كالزهور(١)

وإن شعرهما ليفيض بالحزن والألم والشكوى من الحياة ، وكثير منه نجد مساربه فى شعر هؤلاء المهاجرين ، فقد استجابوا لهذا اللون القاتم عند الشاعرين ، ووسع استجابتهما ما شعروا به من غربة ووحشة فى ديار الأجانب ، وأحسَّ فريق منهم إحساسا عميقا بذلك ، فأرسلوا هذا النغم الحزين الذى يصيح الألم فيه .

على أن هذا الحزن والألم عند شعراء المهجر لم يدفع إلى لون من الإلحاد على نحو ما هو معروف عن أبى العلاء والخيام . فقد حملوا فى صدورهم قلوباً مؤمنة ، ومن هنا لم ينقموا على السماء ولا تمردوا على ربهم . ولعل ذلك ما جعل التسليم للقضاء والقدر يشيع فى أشعارهم ، ولا شك فى

(١) ثورة الخيام لعبد الخالق فاضل (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٢٣ .

أن هذا التسليم نزعة شرقية ، واستمع إلى رشيد أيوب يقول من قطعة تحت عنوان « المسافر(١) » :

دعته الأمانى فخلّى الربوعْ ... وسار وفى النفس شىءٌ كثيرْ
وفى الصدر بين حنايا الضلوع ... لنيل الأمانى فؤادٌ كبير
فخثَّ المطايا وخاض البحارْ ... ومرَّتْ ليالٍ وكرَّتْ سنون
ولم يرجـــع
ومرَّتْ سعودٌ وجاءت نحوسْ ... وقد نصل الدهر صبغ الشبابْ
فعلَّل نفسا رمتْها البئُوس ... ببحر همومٍ علاه الضبابْ
أيا نفسُ ! صبرا لحكم القضا ... ويا نفس مهما دهتك الشجونْ
فلا تَجْزَعى

فهو يدعو نفسه إلى التسليم للقضاء وأحكامه ، وأن لا تجزع مهما صبّ القدر عليها من هموم وشجون . ومثل هذه النظرة الهادئة لنوائب الحياة هو الذى يجعل كئوس الألم المتداولة بين القوم يعلوها حباب من قبول الحياة كما تعلوها ابتسامات من حين إلى حين . واستمع إلى إيليا أبى ماضى يقول تحت عنوان « ابتسم(٢) » :

قال : السماءُ كئيبةٌ ! وتجهَّما ... قلت : ابتسم يكفى التجهُّم فى السَّما
قال : الصِّبا ولّى ! فقلت له ابتسم ... لن يرجع الأسفُ الصِّبا المتصرِّما
قال : التى كانت سمائى فى الهوى ... صارتْ لنفسى فى الغرام جهنما
خانتْ عهودى بعد ما ملَّكتُها ... قلبى فكيف أطيقُ أن أتبسَّما
قلت : ابتسم واطرب فلو قارنتها ... قضَّيت عمرك كله متألما
قال : العِدا حولى علتْ صيحاتهم ... أأُسَرُّ والأعداءُ حولى فى الحِمى ؟
قلت : ابتسم ، لم يطلبوك بذمِّهم ... لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما

(١) أغانى الدرويش لرشيد أيوب ص ٦٣ .
(٢) الخمائل ص ٣٨

ورما كان إيليا أكثر شعراء المهجر أخذًا بتلك الفلسفة من قبول الحياة بآلامها ، ولقاء متاعسها بالابتسامة الصاذقة ، وهو يكثر من الحديث في ذلك كقوله من قصيدة أخرى(١) :

أيها الشاكى الليالى إنما الغبطة فكرَهْ
ربما استوطنتِ الكو خَ وما فى الكوخ كِسْرَهْ
وخلت منها القصور العاليـاتُ المشمخره
تلمس الغصنَ المعرَّى فإذا فى الغصن نضْرَهْ
وإذا رفَّت على القَفْـ ـرِ استوى ماءً وخضره
وإذا مَسَّتْ حصاةً صقلتْها فهْى دُرَّه
لك ، ما دامت لك ، الأر ضُ وما فوق المجرة

٥

وشعراء المهجر بذلك لا ينصرفون عن الحياة ، بل هم يقبلون عليها وعلى متعها ، وفى الوقت نفسه نرى عندهم نزعة صوفية من التفكير فى الله ، بل من حبه . ومعنى ذلك أنه تختلط عندهم نزعة جسدية مادية بنزعة روحية صوفية .

وينبغى أن نسارع فنقول إن تصوفهم يخالف تصوف الشاعر العربى المسلم من وجوه . هم يتأثرونه ، ولكنهم لا يجرون دائما فى اتجاهاته ، إذ يخضعون فى تصوفهم لتأثيرات مسيحية ، لكنهم على كل حال يستمدون من المنابع الشرقية .

وحقا أنهم لا يرفضون الحياة ولا يلبسون خِرَقَ الصوفية ، بل هم يقبلون على دنياهم ومتعها ، ومن هنا يقتربون من ذوق عمر الخيام وحافظ الشيرازى

(١) الخمائل ص ٩٨

وأمثالها من متصوفة الفرس . ومع ذلك فهم لا يسرفون على أنفسهم إسرافهم .

وعلى هذه الشاكلة نجد دائما مشابه بينهم وبين شعرائنا ، وخاصة حين ينادون بالزهد فى الحياة الدنيا والإعراض عن صورها الزائلة ومنافعها العاجلة . وقد أخذوا يفكرون فى الأديان على نحو ما فكر المتصوفة عندنا ، وانتهوا إلى أن الأديان للديان ، وأن الله جل وعز ملء النفوس والعقول ، وأن الكل مشدود إليه ، هدفه الوصول إلى الحقيقة ومعرفة الحق الذى هو مصدر الخلاص .

وفى أثناء ذلك نجد القلق الذى يتميز به المتصوفة من المسلمين ، فشاعرهم حائر ، وهو لا يبرح ينظر فى الجسم والروح ، وقد أكثر من الحديث عن النفس ، ولكنه لم ينس الجسد ومتعه ولذائذه ، حتى ليقول نسيب عريضة (١) .

شربتُ كأسى أمام نفسى وقلت يا نفسُ ما المرام
حياة شك وموت شكٌّ فلنغمر الشكَّ بالمُدام

وهذا الشك إنما هو تعبير عن قلق فى روح الشاعر ، وهو نفس القلق الذى نجده عند المتصوفة ، ولن تنفعه لحظة النشوة التى تغمره بها المدام ، فإنه لا يلبث أن يفيق ، فيعود إلى الشك وإلى التفكير فى الحياة ، ثم ينغمس فى متع الشباب ولذة الشراب ، ولا يلبث أن يعود إلى روحه وصفائه ونقائه فيرى نفسه مقسما بين شيطان وملاك . ويعبر عن ذلك ميخائيل نعيمة تعبيرا طريفا فيقول (٢) :

دخل الشيطانُ قلبى فرأى فيه ملاكْ

---

(١) نسيب عريضة ص ٥٣ (٢) همس الجفون ص ٩٦

وبلمح الطرف مابينهـــــما اشتـــدَّ العِـــرَاك
ذا يقـول البيتُ بيتى فيعيـد القـــول ذاك
وأنا أشهـــد ما يَجْـــــرى ولا أُبْـدِى حَراكْ
سائلا ربِّى : أفى الأكْـ ـوان من ربٍّ سواكْ
جَبَلتْ قلبى من البَدْ ءِ يـداهُ ويـداكْ
وإلى اليـــوم أرانى فى شكوكٍ وارتباكْ
لست أدرى أرجـيمٌ فى فؤادى أم مـلاكْ

فالشاعر المهجرى موزع دائما بين الملاك والشيطان أو بين الروح والجسد ، وهو لذلك لايهدأ. بل هو مضطرب ثائر ، يريد أن يشفى غُلـتَـهُ من الحسِّ والجسد ، ثم لايلبث أن يراجع نفسه ،فيبكى ويشكو شكوى عمر الخيام وأمثاله ممن شربوا من النهر قبله . واستمع إلى نسيب عريضة يقول فى مقطوعته « أمام الغروب (١) »

رُوَيْـدَكَ شمسَ الحيَـاه ولا تُسرعى فى الغروبْ
فـما نالَ قَـلبى مُناه وما ذاق غيرَ الخطوب

حنانيكَ داعى الرحيلْ أنمضى كـذا مرغمين
ولم نرْوِ بعـدُ الغليلْ فمهلاً وَدَعْـنَا لحينْ

أنمضى ولمَّـا نَـنَلْ رغائبَ نفْسٍ طَموحْ
أنقضى ويقضى الأمَلْ وتندكّ تلكَ الصروح

حنـانيك ! أين الذهابْ وأين مصـير النفـوسْ
أنجتـاز هـذا التـرابْ لنبلغ سُبُـل الشموس

لمـاذا نزلنـا بهـا وصرنا عليهـا عبيـدْ

(١) نسيب عريضة ص ٨٢

إذا كان فوق السُّها مصيرُ النفوس العتيدْ

إذا كان قصْدُ الصَّمَدْ بذاك عقابَ النفوسْ
فما كان ذنبُ الجسَدْ ليغدو شريكَ البئُوسْ

سنترك هذى الربوع كشمسٍ دهاها الغيابْ
وللشمس صُبْحًا رجوع أليس لنا من إيابْ ؟

فهو يتمهل الشمس حتى يقضى مآربه ومتعه من دنياه ، وهو حيران فيمَ جاء وفيم يرحل تاركا هذا الدَّنَّ الكبير لا يعبُّه عبًّا ولا ينهله كله نهلا . ولكن لا تظن أن الشاعر آثر اللذائذ الحسية ، وانصرف انصرافا عن ربه ، وعن طريقه إليه ، فإنه لا يلبث أن يقول فى نفس المقطوعة :

كفاكِ عَنًا يا فِكَرْ تعبتِ بلا طائلِ
فما نحن إلا أثَرْ على الرَّمْلِ فى الساحلِ

سنبقى قليلا هنا إلى المدِّ حتى يعودْ
فيمضى سراعا بنا إلى البحر بحرِ الخلودْ

أشمسَ الحياة اغرُبى ولا تُمهلينى لَغَدْ
فما حاصلٌ مطلبى ولو طال عمرى الأبدْ

أشمسَ الحياة اسرعى وغيبى فأنتِ خيالْ
أشمس الخلود اسطعى إليكِ إليكِ المآلْ

وهذا التعطش إلى الخلود هو الذى يدفع شاعر المهجر دائما الى البحث عن الطريق : طريق ربه ، وهو طريق محفوف بالمكاره ، طريق طويل شاق ملىء بالأشواك ، لا يقطعه سوى القديسين الأطهار ، وشاعرنا فى أثرهم يجرى لاهثا مكدودا .

وعلى هذه الشاكلة ما يزال شاعر المهجر مضطربا بين النزعات الجسدية والصوفية ، وانه لتطلُّ علينا من بين أشعاره فكرة ابن سينا عن النفس وما سجله فى قصيدته :

هبطتْ إليك من المحلّ الأرفعِ ورقاءُ ذاتُ تدلُّلٍ وتمنُّعِ
محجوبة عن كل مقلة ناظرٍ وهى التى سفرتْ ولم تتبرقعِ

وابن سينا يتناول فيها النفس قبل اتصالها بالجسد ، وبعد اتصالها ، وحين مفارقتها له ، فى آراء فلسفية طريفة . وقد نهج نهجه شعراء المهجر ، فهذا نسيب عريضة يقول فى قصيدته « يا نفس (١) » :

يا نفسُ مالكِ فى اضطرابْ كفريسةٍ بين الذئابْ
هلا رجعتِ إلى الصوابْ وبدّلتِ ريبكِ باليقين

أحمامة بين الرياحْ قد ساقها القدرُ المتاحْ
فابتلّ بالمطر الجناحْ يا نفسُ مالكِ ترجفينْ

أصعدتِ فى ركب النزوعْ حتى وصلتِ إلى الربوع
فأتاكِ أمر بالرجوعْ أعلى هبوطكِ تأسفين

أم شاقكِ الذكر القديمْ ذكرُ الحمى قبل السَّديمْ
فوقفتِ فى سجن الأديم نحو الحِمَى تتلفّتين

أأضعتِ فكرا فى الفضاءْ فتبعْتِه فوق الهواء
فنأى وغلغل فى العلاء فرجعتِ ثكلَى تندبين

أعشقتِ مثلك فى السماء أختا تحنُّ إلى اللقاءْ

(١) انظر نسيب عريضة ص ١٩

فجلستِ فى سجن الرجاءْ نحو الأعالى تنظـــرينْ

لوّحت باليد والرداءْ لتراكِ لكنْ لا رجاءْ
لم تَدْرِ أنك فى كساءْ قد حِيكَ من ماءٍ وطين

يا نَفْسُ أنت لك الخلودْ ومصيرُ جسمى للّحودْ
سيعيثُ عَيْثَكِ فيه دودْ فدعِى له ما تَنْخَرِينْ

وهذه الأبيات كلها نسجت من نفس الخيوط التى نسج منها ابن سينا قصيدته ، فالنفس وجدت قبل وجود الجسد ، وقبل أن تقع فى سجن الأديم . وما تزال تحن إلى الانفصال ، إذ جاءت كما يقول ابن سينا من المحل الأرفع ، وإنها لتتشوق إليه ، حتى ترتفع عن هذا الحضيض الأسفل ، وحتى تدرك كمالها ثانية ، فهى خالدة ، أما الجسم ففانٍ ، إذ هو قابل للفساد . وتلقانا نفسُ الأفكار عند إيليا أبى ماضى فى قصيدته « العنقاء » إذ يقول(١) :

أنا لستُ بالحسناء أولَ مولعٍ هى مطمعُ الدنيا كما هى مطمعى
إنى لذو نَفْسٍ تهيمُ وإنها لجميلةٌ فوق الجمال الأبدع
ويزيد فى شوقى إليها أنها كالصوتِ لم يُسْفر ولم يتقنَّع
فَنَشَتْ جَيْبَ الفَجْرِ عنها والدُّجَى
ومددت حتى للكواكب إصبعى
فإذا هما متحيِّران كلاهما فى عاشقٍ متحيِّرٍ متضعضع
وإذا النجومُ لعلمها أو جهلها مترجرجاتٌ فى الفضاء الأوسع
رقصتْ أشعتها على سطح الدّجى وعلى رجاءٍ فىَّ غير مشَعْشَعِ

والقصيدة كلها على هذه الشاكلة مشتقة من فكرة النفس وتشوّقِ الجسد إليها وحلولها فى العالم الأرضى بعد أن كانت فى العالم السماوى ، وإنها لمحجوبة

(١) الجداول « طبعة نيويورك سنة ١٩٢٧ » ص ٥ .

عن الحواس فلا تدركها ، وإنها لنور خالص ، ومع ذلك تتحد بالجسد المظلم الذى يؤول إلى الفناء ، وتتعلق بعالمه الأدنى برهة ، ثم تتركه إلى عالمها الأعلى. وتطالعنا هذه الفلسفة كثيرا عند الشاعرين جميعا ، وهى كما ترى فلسفة ابن سينا بعينها . وهذا هو معنى قولنا إن تفكير القوم فى الروح والنفس مشوب بأفكار شرقية ، بل إنه منزوع نزعا من آراء ابن سينا وفلسفته فى النفس والجسد .

وهذا كله يمزج عندهم بنزعة صوفية ، إذ نراهم يُكبرون عالمَ الروح ، ويُعلون النفس على سجنها الضيق المظلم ، كما يعلون العالم العلوى كله على العالم الأرضى وما فيه من لذات حسية . وليس هذا حسب فإننا نرى عندهم نفس الأشواق ونفس المحبة التى نراها عند متصوفة المسلمين وما يُطْوَى فيها من رغبة فى الاتصال بالذات الإلهيـــة ، يقول إيليا أبو ماضى فى قصيدته « ليل الأشواق »(١) :

أبَقَ النومُ فانطلقت إلى النَّهْـ ـرِ بنفْسٍ كادت تسيل دِماها
ومعى صاحبٌ رقيقُ الحواشى تجد النفسُ فى رُؤاهُ رؤاها
قال : لا شوقَ ، لا صبابةَ لولا ها ، فتمتمتُ قائلا : لولاها
قال : هل تشتهى الوصولَ إليها ؟ قلتُ : إنى لا أشتهى إلاَّ ها
كان طَرْفى يجول فى العالم الأعْـــلى وروحى تجول فى مغناها
وجليسى يظنُّ فى الشهب قصدى وأنا أحسب الجليسَ عَناها
خِلْت أنى إذا بعدتُ سأنسا ها ويطوى الزمان سفرَ هواها
وتَوهمت أننى سوف ألقى ألف ليلى وألفَ هندٍ سواها
فإذا الحبُّ كالفضاء وقلبى طائرٌ فى الفضاء ضلَّ وتاها
أنا فى عالم قصـــىٍّ سحيق لا أراها لكنَّ روحى تراها

---

(١) الخمائل ص ٢٤ .

وإذا ما لمحتُ فى الأرض حُسْنًا ... فكأنى لمحتها إيَّاها
وإذا داعبَ النسيم ردائى ... قلت قد علَّمتْه هذا يداها
قال قومٌ إن المحبَّة إثمٌ ... وَيْحَ بعض النفوس ما أغباها
إن نفسًا لم يُشرق الحبُّ فيها ... هىَ نفسٌ لم تَدْرِ ما معناها
أنا بالحبِّ قد وصلتُ إلى نفـ ... ـسى وبالحب قد عرفت اللهَ

فالمحبة الشائعة عند المتصوفة هى القبس الذى كتب إيليا على ضوئه هذه الأبيات ، وإنه ليعبر عن نفس المواجد التى نجدها عند شاعر كابن الفارض ، فهو صبٌّ مشوق يريد الوصال ، وهو يرى إلهه من حوله فى الطبيعة وفى كل جميل تقع عينه عليه ، فهو منبثٌّ فى صور الكون ومجاليه ، تلك الصور التى تصدر عنه وتفيض ، وهى لذلك تعشق ، أو هو الذى يُعْشَقُ فيها .

وكل هذه المعانى معروفة عند المتصوفة ، فهم يعشقون ربهم ، وهم لا يعشقونه وحده ، لا يعشقون الذات فحسب ، بل يعشقون الكون كله ، لأن جمال الذات الإلهية يتراءى فيه وفى صوره ومظاهره ، فالصور والمظاهر تتعدد ، والحقيقة واحدة ، وهى الجمال الإلهى المطلق .

وإذن فنحن إزاء صوفية شرقية ، وقد ذهب شاعر المهجر يصرخ فى شعره بهذه الصوفية ، وخاصة من حيث العشق والمحبة والرغبة فى الاتصال بربه ومشاهدته . ولنسيب قصيدة تسمى « على طريق إرم » وهو يقصد بالطريق نفس طريق المتصوفة التى يسلكونها إلى ربهم ، يبتغون الاتصال به ، بل يبتغون مشاهدة جماله والفناء فيه ، يقول (١) :

تفتَّحتْ أعينُ الدَّرارى ... واستيقظتْ أنفسُ الليالى
وهينمتْ فى الدُّجى الأمانى ... ورفرفتْ أجنحُ الخيالِ
وأفلتَ الحلمُ من عقال ... فطارَ يَسْعَى إلى الجمال

(١) نسيب ص ٨٦

فقم بنا يا سميرَ نَفْسى نقفو الأمانى إلى الـــكمال

فهو يجرى فى الطريق يريد أن يشاهد جمال الذات الإلهية ، حتى يحقق لنفسه فكرة الـــكمال ، ووُفِّق نسيب فى اختيار كلمة الطريق ، إذ هى تدل بذاتها على ما يتحمله من مشقة وألم فى سبيل الاتصال بمحبوبه ، وإنه لراض عن كل ما يلقـــاه فى طريقه من عنت وعذاب ، وما يزال يسعى حتى يصل إلى « نار إرم » فيقول (١) :

تلك نارُ القِـرَى والجياعُ الورَى
مَن إليها سَرَى ما أراهُ يعودْ
بل سيغدو الوَقودْ

فهو يرى الاتصال بالذات الإلهية لا يتم الا حين يتحطم الجسد وتنطلق النفس من إساره إلى عالم الخلود . حينئذ يتمُّ للحبِّ كل ما كان يطمع فيه من فناء وكمال ، كأن ذلك لا يحدث إلا حين يفنى الجسم ويغيب فى أفق العدم كما كان قبل أن تحلّ النفس فيه ، فلا يبقى له صورة ولا رسم ، وتبقى النفس وتتحد فى ربها . وتناول إيليا ضياءً من هذه الفكرة كتب عليه قصيدته « نار القِـرَى » وفيها يقول (٢) :

كيف الوصولُ إليكِ يا نارَ القِـرَى أنا فى الحضيضِ وأنت فى الجوزاءِ
لى ألفُ باصرةٍ تحنُّ كما ترَى لـكنَّ دونك ألفَ ألفِ غطاءِ
لو من ثرًى مزقتُها بيد الثَّرَى لـكنها سجفٌ من الأضـــواءِ
ساءلتُ قلبى إذ رأى فتحيَّرا ماذا شربتَ فمُتَّ ؟ قال دمائى
يا ليته قد ظلَّ أعمى كالورَى فلقد نعمتُ وكان فى ظلماءِ
قد شوَّشتْ كفُّ النهار سكينتى يا هذه رُدِّى إلىَّ مسائى
أمسيتُ حين لمستِنى بيديكِ لى ألف باصرةٍ وألف جَناحِ
ولمحتُ نار الوحى فى عينيك والوحى كان سلافة الأرواح

(١) نسيب ص ٩٢ . (٢) الجداول ص ٥٩ .

فنشرتُ أجنحتى وحمت عليكِ متوهما أنى وجدتُ صباحى
قد كان حتفى فى الدنوِّ إليكِ حَتْفَ الفراشة فى فم المصباح
فسقطتُ مرتعشا على قدميكَ النارُ مَهْدى والدخان وشاحى
ياليت نورك حين أحرقنى انطوى فعلى ضيائك قد لمست جراحى

فإيليا كصاحبه نسيب يصور الرغبة فى الاتصال الروحى بالذات الإلهية، وهو يستسلم لنشوته بذلك ، بل هو يطلب الفناء والاتحاد كما يطلب الفراش النار ، فهو يهوى إلى اللهيب يريد أن يحترق فيه ، حتى يحقق فكرة الخلود ، وإنه لسعيد بهذا الاحتراق ، لأنه إنما يعنى الكمال الذى تسعى إليه نفسه منذ وجودها الأول .

وفى أثناء هذا الشوق واللهفة إلى الفناء فى الذات العلية نجد شاعر المهجر يلتجىء إلى خالقه مبتهلا مستغفرا داعيا ،وهو يعود بذلك إلى أجداده الأول، الذين تعوَّدوا فى ليالى الصحراء العربية المقمرة والمظلمة أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه توبةً نَصُوحا . يقول نسيب (١) :

أيا من سَناه اختفى وراءَ حدود البشَرْ
نسيتك يوم الصَّفَا فلا تنْسَنى فى الكدَرْ
أيا غافرًا أرْحَمَا يرى ذُلَّ أمسى وغَدْ
مَعاذَك أن تَنْقَمَا وحلمُك ملءُ الأبَدْ
مَراعيك خُضْر المُنَى هى المشتهى سيِّدى
وجسْمى دَهاهُ العَنَا حنانيك خذ بيَدى

فهو يدعو ربه أن يغفر له خطاياه ، وما قدَّمت يداه ، وهو يلجأ إلى رحمته التى وسعت كل شىء ، حتى يسدل على ذنوبه ستارا يعفيه منها ، فلا ينتقم منه ، بل يدخله فى جناته ، ويسكب عليه من ماء رضوانه . ولميخائل نعيمة قصيدة طويلة سماها « ابتهالات (٢) » ، وهى كلها توسلات ودعوات إلى ربه.

(١) نسيب ص ٦١ (٢) همس الجفون ص ٣٥

وأظن فى كل ما قدمنا ما يوضح هذه النزعة الروحية فى شعر المهجر ، وهى ، كما رأينا، تتصل بجذور شرقية عربية ، وقد تكون حياة الإنسان الآلية فى أمريكا سببا من أسبابها، ولكن ذلك لا ينفى أن هذا الشعر ردُّ فِعْلٍ شرقى لتلك الحياة التى لا يألفها العربى ، فأحسَّ هناك كأنه تائه فى دنياه لا يعرف أين يولِّى وجهه ، فهو يضرب فى صخور مقفرة ، هى صخور المدنية الحديثة المجدبة، التى يسقط عليها الجسد فيبلى ويتفتت مع مر الزمن. ويلمح شاعرنا نارَ البرق فى الأفق البعيد ، فيتحول اليها يريد أن يفنى فيها كما يفنى الدخان .

٦

وليس ما قدمنا كلَّ ما للعرب والشرق من طوابع فى الشعر المهجرى فقد بقى طابع مهم ، لعله من أهم الطوابع التى تميز شعرنا العربى العام ، ونقصد ما فى هذا الشعر من نزعة تقريرية ، فالشاعر العربى قلما يكسو فكره غموضا ، ولذلك لم تظهر عنده قديما نزعة رمزية أو ما يشبه الرمزية ، لسبب بسيط ، وهو أن أصحابه لا يرمزون ولا يُومئون من بعيد ، بل يعبرون مباشرة عما يريدون ، لا يدورون ولا يلفون .

وكأن الحياة الشرقية أو قل الحياة العربية الواضحة بصحرائها وشمسها المتوهجة لم تدع فى نفس العربى رغبة فى رمز أو إبهام ، بل جعلته يكشف عن مراده كشفا ، فهو ابن الصحراء ، وكل ما فى الصحراء عريان . ومن هنا كان شعوره بل تفكيره مجردا لا تُسْدَل عليه حجب ولا أستار، فهو لا يعرف الحجب ولا الأستار فى حياته، واذا نبتت شجرة فى هذا الهمود المطلق من بيئته نبتت وحيدة ، لا تلتفّ بها نباتات أخرى ، ولا أشجار سامقة ، ولا غير سامقة . فهى تخرج مكشوفة ، واضحة للعين من جميع جوانبها . وكذلك الفكر العربى والشعر العربى خاصة فهو شعر واضح ، لا يحوجك فهمه الى فلسفة إلا ما جاء مع مر العصور عن طريق موارد أجنبية ، أما هو فى

بيئته فعلى الفطرة والطبع ، لا يُحوجك إلى عناء فى فهمه ولا إلى شرح وبيان إلا من حيث اللغة .

وليس الغريب اللغوى شيئا يدخل فى غموض أو إبهام ، فقد كان معروفا لأصحابه ، ولم يكونوا يحتاجون إلى معاجم فى فهمه ومعرفته ، إنما نحن الذين نفتقر إلى ذلك لبعد العهد ، ولأننا نجهل هذه الألفاظ الغريبة بالذات ، حتى إذا فهمناها أو عرفناها ارتفعت الحواجز والعوائق التى كانت بيننا وبينها .

وهذا الوضوح الشديد ليس كل ما يميز الشعر العربى ، بل يميزه أيضا أن أصحابه إن أذاعوا فيه أفكارا ، ما زالوا بها حتى كأنهم يضعونها لك فى يدك أو فى حِجْرك ، وكأنها أشياء تُحْصَرُ حَصْرًا وتحدُّ تحديدا .

وذلك ما نسميه النزعة التقريرية ، فالشاعر العربى يصفُّ أفكاره صفوفا ، ويرمى لك بها ، فلا يتركك تفكر طويلا فيما يريد ، بل يقدمه لك بين يديك ، وتستطيع أن تلاحظ ذلك فى أشعار الجاهليين والإسلاميين من أمثال امرىء القيس وزهير وجرير والفرزدق ، ثم فى أشعار العباسيين من أمثال أبى نواس ومسلم وأبى العتاهية والمتنبى ، فهؤلاء جميعا يسوقون لك أفكارهم وكأنها اعترافات . وأنت من أجل ذلك لا تجد عناء فى فهمها ولا فى ضبط المراد منها ، لأنها تتوالى عليك فى شكل تقريرى يصرِّح فيه الشاعر بكل ما فى نفسه ، لا يطوى منه شيئا ولا يُخْفى شيئا إلا فى النادر ، وفى الشذوذ بعد الشذوذ .

ومن يقرأ الشعر المهجرى قراءة فاحصة يجده ينزع هذه النزعة نفسها ، وخاصة شعراء أمريكا الجنوبية إذ لا يكادون يفترقون فى شىء عن شعرائنا ، بل لعلهم لا يسمون الى الدرجة الوسطى منهم . وحتى خير ما أنتجوه ، وهو ما جرى على لسان فوزى المعلوف وصاحبه شفيق ، لا يكاد أيضا يخالف هذا العمود العام من الوضوح والتقرير .

وإن الشعر المهجرى الخليق بالقراءة حقا هو شعر أمريكا الشمالية ، ومع ذلك لا يعيش ناقد معيشة طويلة أو قصيرة فى هذا الشعر حتى يحس أنه بُنِى بناية وأُخِذَ أخذا من ينبوع نزعتنا التقريرية . وأزلْ ما عليه من أصداف القصة أحيانا ومن محاولة التأثر أو النقل عن بعض شعراء الغرب ، فإنك لا تلبث أن تجده نفس شعرنا بمادته وصورته وطريقته التقريرية ، التى تلقى عليك الأفكار فى شكل آراء وأحكام .

وربما كان أكثر شعراء المهجر إغراقا فى الغموض أو فى محاولة الغموض هو إيليا أبو ماضى ، ومع ذلك لا نكاد نلم به حتى تطالعنا هذه النزعة التى تحوِّل لنا الشعر كأنه شىء ملموس . واقرأ قصيدة « الطين » لهذا الشاعر فإنك تراه فيها عربيا لا يتميز فى شىء من شعرائنا ،واسمعه يقول (١):

نسىَ الطينُ ساعةً أنهُ طِي ... ن حقيرٌ فصال تِيهًا وعَرْبَدْ
وكسَا الخزُّ جسْمَهُ فتباهى ... وحوى المالَ كيسُه فتمرَّدْ
يا أخى ! لا تَمِلْ بوجهك عنِّى ... ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فَرْقَدْ
أنتَ لم تَصْنع الحرير الذى تلـ ... ـبَسُ واللؤلؤَ الذى تتقلَّدْ
أنت لا تأكل النضار إذا جُعْـ ... ـتَ ولا تشربُ الجمانَ المنضَّدْ
أأمانىَّ كلُّها من تراب ... وأمانيك كلها من عَسْجَدْ ؟
وأمانىَّ كلُّهـا للتلاشى ... وأمانيك للخلود المؤكَّدْ ؟
لا ، فهذى وتلك تأتى وتمضى ... كذويها وأىُّ شىء سَرْمدْ
أنت مثلى يبشُّ وجهك للنُّعْـ ... ـمَى وفى حالة المصيبة يكمد
أدموعى خلٌّ ودمعك شهدٌ ... وبكائى ذلٌّ ونوحك سؤدَدْ ؟
وابتسامى السَّراب لا رىَّ فيه ... وابتساماتك اللآلى الخُرَّدْ
فلكٌ واحدٌ يُظِلّ كلينا ... حارَ طرْفى به وطرفك أرْمَدْ

(١) انظر الجداول ص٢٣ .

قمـــرٌ واحدٌ يُطِلُّ علينا ... وعلى الكوخ والبناء الموطَّدْ
النجوم التى تراها أراها ... حين تخفى وعند ما تتوقَّدْ
لستَ أدنى على غناك إليها ... وأنا مَعْ خَصاصتى لست أبْعَدْ
أنت مثلى من الثرى وإليه ... فلماذا يا صاحبى التِّيهُ والصَّدّْ
كنتَ طفلا! إذ كنتُ طفلا وتغدو ... حين أغدو شيخا كبيرا أُدْرَدْ
لستُ أدرى من أين جئت ولا ما ... كنتُ أوما أكون ياصاح فى غَدْ
أفتدرى إذن فخبِّرْ وإلا ... فلماذا تظنُّ أنك أوحَدْ
ألك الروضةُ الجميلةُ فيها الـــ ... ـــماءُ والطير والأزاهر والنَّدّْ
فازْجُرِ الريح أن تهزَّ وتلوى ... شجـــر الروض إنه يتأوَّدْ
والجمِ الماء فى الغدير ومُرْهُ ... لا يصفِّق إلا وأنت بمشْهَدْ
إن طير الأراك ليس يبالى ... أنتَ أصغيتَ أم أنا إن غرَّدْ
والأزاهير ليس تسخر من فَقْـــ ... ـــرى ولا فيك للغنى تتودَّدْ
أيها الطينُ لستَ أنقى وأسْمَى ... من ترابٍ تدوس أو تتوسَّدْ

ولم ننقل القصيدة برمَّتها ، لأن ما وراء ذلك تكرار ، بل نفس هذه الأبيات التى نقلناها ترداد وتطويل لفكرة واحدة . وهذا ما نعنيه بالوضوح وبالتقرير . وقد وضع إيليا المسألة موضع جدال بنفس عقلية العرب فى شعرهم ، ولم يستطع ما أدخله فيها من تلوين عاطفى أن يرفع القصيدة عن مستوى الوضوح الذى يكاد يكون ابتذالا ، فهو يبدىء ويعيد فى كلام مفهوم ، لا نَبْسَ فيه ولا غموض . وماذا يريد من صاحبه سوى التواضع ، وهو يتخذ له هذا الحوار المكشوف ، فتخرج القصيدة وليس فيها إيحاء ولا ما يشبه الإيحاء . وربما لم تَدُرْ قصيدة على ألسنة شبابنا لشاعر مهجرى كما دارت قصيدته « الطلاسم » ومع ذلك اقرأها فإنك تجد هذه النزعة ماثلة فيها ، وهو يستهلها على هذا النمط(١) :

(١) انظر الجداول ص ٨٩ وما بعدها .

جئت لا أعلم من أيـــنَ ولكنى أتيت
ولقـد أبصرت قُدَّا مى طريقـــا فمشيتُ
وسأبقى سائرا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئت؟ كيف أبصر تُ طريق ؟
لست أدرى

أجديدٌ أم قـــديمٌ أنا فى هذا الوجودْ ؟
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ فى قيودْ
هل أنا قائدُ نفسى فى حياتى أم مَقُودْ ؟
أتمنَّى أننى أدْ رِى ولكن
لست أدرى

وطريقى ما طريقى ؟ أطويلٌ أم قصير ؟
هل أنا أصعد أم أهْـــبِطُ فيـــه وأغور ؟
أأنا السائر فى الدرْ بِ أم الدربُ يسير ؟
أم كلانا واقفٌ والـــدَّهر يجرى ؟
لست أدرى ؟

ليتَ شعرى وأنا فى عالم الغيب الأمين
أترانى كنت أدرى أننى فيـــه دفين ؟
وبأنى ســوف أبدو وبأنى سأكون ؟
أم ترانى كنت لا أُدْ رك شيئاً ؟
لست أدرى

أترانى قبلمـا أصْـــبَحْتُ إنسانا سَوِيًّا
كنتُ مَحْوًا أو محالا أم ترانى كنتُ شيًّا
ألهـذا اللغْزِ حَلٌّ أم سيبقى أبديًّـــا
لســـت أدرى ولمـاذا لست أدرى ؟
لست أدرى

وينطلق فيسأل البحر ويقف به ، كما يسأل سكان الدير وعُبَّاده ، ويقف بالمقابر ، والقصر والكوخ . ويستعرض فكره وما فى داخله من صراع وعراك بين الجسد والروح أو بين الشيطان والملاك . وينظر فى الطبيعة والحسن والجمال والورد والشوك والشهب والسحب والغاب ، ويلقى بالأسئلة ، والجوابُ هو الصيغة التى حفظها قارئوه عن ظهر قلب : « لست أدرى » . وينهى قصيدته بقوله:

إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلمُ
أنا لغزٌ وذهابى كمجيئى طلسمُ
والذى أوجد هذا اللغز لغزٌ مبهمُ
لا تجادل.. ذو الحِجَى مَنْ قال إنى
لست أدرى

ولو أن إيليا صوَّر قصة الإنسانية فى نفسه ولم يحوِّلها إلى هذه الأسئلة والجواب المحفوظ لعرض علينا شعرا بديعا ، ولكنه الطابع الشرقى أو العربى الذى يجرى فى دماء شعره إن صح هذا التعبير . وما إعجاب شبابنا بالقصيدة إلا دليل آخر على أنه وجد فيها خصائصه وميزاته التى تستقر فى طوايا نفسه .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن شاعر المهجر لا يزال يسبح بين لُجَج شعره فى زوارق شرقية عربية بالرغم مما اطلع عليه من ثقافات ، وبالرغم مما انتقل إليه من بيئات ، فلا تزال تتفجر فى نفسه الينابيع التى تفجرت فى نفوس أسلافه ، ولا تزال تتجلَّى فى داخله وأغوار نفسه ، بل تضطرم وتلتهب ، نفس الشعلة التى اضطرمت والتهبت فى أعماق آبائه ؟